

الدفتر الذهبي

دوريس ليسينج

الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب

الدفتر الذهبي

الدفتر الذهبي

مع مقدمة بقلم المؤلفة

تأليف
دوريس ليسينج

الحاصلة على جائزة نوبل في الآداب

ترجمة
إيمان أحمد عزب



The Golden Notebook

Doris Lessing

الدفتر الذهبي

دوريس ليسينج

الطبعة الأولى ٢٠١١م
رقم إيداع ٢٠١٠/١٩٣٦٨
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ليسينج، دوريس.
الدفتر الذهبي/ دوريس ليسينج (الفائزة بجائزة نوبل للآداب ٢٠٠٧).
٧٣٨ص، ١٦×٢٣سم
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٧٢ ٧

١-القصص الإنجليزية
٢-المرأة في الأدب

أ-العنوان

٨٢٣

المحتويات

مقدمة ١٩٩٣ ٧

مقدمة ١٩٧١ ١١

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى ٣١

آنا تقابل صديقتها مولي في صيف عام ١٩٥٧ بعد انقطاع ٣٣

الدفاتر ٨٧

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثانية ٢٨٧

آنا تتلقى زيارتين، وبعض المكالمات الهاتفية، وخبرًا مأساويًّا ٢٨٩

الدفاتر ٣١٧

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الثالثة ٤١٣

يتأقلم تومي مع وضعه كشخص كفيف ويحاول الكبار أن يساعدوه ٤١٥

الدفاتر ٤٥٩

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الرابعة ٥٦٥

آنا ومولي أثرا في تومي تأثيرًا إيجابيًّا. ماريون تترك ريتشارد. آنا لا تشعر بالثقة ٥٦٧

الدفاتر ٥٨٣

الدفتر الذهبي ٦٧١

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الخامسة ٧٠٩

تتزوج مولي وتدخل آنا في علاقة غرامية ٧١١

دوريس ليسينج ٧٣٣

مقدمة ١٩٩٣

يدهشني النجاح الذي تحرزه هذه الرواية، فهي تطرح نفسها كل يوم في أماكن جديدة لم أتوقعها، آخر هذه الأماكن هي الصين التي زرتها بناء على دعوة من الاتحاد الرئيسي للكتاب الصينيين حيث صدرت طبعة من الرواية عدد نسخها ٨٠٠٠٠ نسخة — عدد صغير على دولة بحجم الصين — ثم نفدت من الأسواق بعد ثلاثة أيام، وهناك طبعة أخرى صدرت من قبل ولاقت نجاحًا، وقيل لي: «الجميع قرءوها.» والجميع هنا تشير — كما هو غالب الحال هذه الأيام — إلى الوسط الجامعي، فقد لمست في الجامعات التي زرتها في بكين وشنغهاي وشيآن وكوانتون (جوانزو) حرصًا حيويًّا عماده الاهتمام بمعرفة بالأدب البريطاني والأمريكي. وخطر لي الآن فقط أن الجامعات باتت تؤدي الوظيفة نفسها التي كانت تؤديها الأديرة في العصور الوسطى، وهي الإبقاء على أعمدة الفكر والحفاظ عليها في البلاد التي لا يستطيع ناسها شراء الكتب من شدة فقرهم (غير أنه لم يعد بإمكاننا أن نقول إن الصين دولة فقيرة). ومنذ وقت قريب تلقيت خطابًا من سيدة تعمل نادلة بإحدى فنادق ريو دي جانيرو تقول فيه: «لا يمكنني أن أشتري الكتب ولكن زوجي يعمل بالجامعة ويسمحون له باستخدام المكتبة، وقد أحضر لي رواية «الدفتر الذهبي» وشعرت أنني يجب أن أخبرك ...».

وقد سمعت أن الرواية وُضِعَت ضمن مقررات فصول التاريخ والعلوم السياسية بالمدارس والجامعات وأسعدني ذلك، فأحد الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذه الرواية أنني شعرت أن هناك فراغات يجب أن تملأها الروايات خاصة فيما يتعلق بأدب القرن التاسع عشر. ومن أمثلة الروايات التي أحب أن أقرأها الروايات التي تصور القائمين على الحركة الميثاقية وتعكس حياتهم الخاصة ومناقشاتهم وصراعاتهم وربما تصور الفصائل الثورية الصغيرة التي علا نجمها بلندن في القرن التاسع

عشر والتي كانت جهود معظمها مكرسة لإشعال فتيل الثورة بأوروبا. وإني أرى أن رواية «الدفتر الذهبي» شاهد جيد على عصرها لا سيما في هذا الوقت الذي تلفظ فيه الاشتراكية أنفاسها الأخيرة في كل مكان — إن لم تكن قد لفظتها بالفعل — أو تغيِّر أفكارها ومبادئها. فلا شيء يبدو أكثر غرابة من معتقد آمن الناس به ثم خبا وتلاشى، ومع ذلك تستطيع الرويات أن تعكس لنا المشاعر وتصور لنا روح العصر على نحو لا سبيل للتاريخ إليه.

وذات مرة قالت لي طالبة يوغوسلافية: «كم كان من الممتع أن أقرأ عن كل هذه الشئون السياسية القديمة.» فالشئون السياسية التي تتحدث عنها الرواية باتت قديمة وغريبة على يوغوسلافيا الشيوعية، وربما أسمع أيضًا تعليقًا مثل: «إن رواية «الدفتر الذهبي» تعكس ما كان يحدث بجماعتي السياسية في السبعينيات.» أو «تعكس حياتي كامرأة.»

عندما صدرت الرواية لأول مرة عُدت سابقة لأفكار عصرها، لكن عندما قرأتها مجموعة من الطالبات بإحدى مدارس شمال لندن في الخامسة عشرة من عمرهن؛ رأينها رواية عادية جدًّا. وفي هذه السنة قُرئت الرواية بأحد الفصول في جامعة زيمبابوي بناء على رغبة الطلاب والطالبات من البيض والسود. وقالت لي المعلمة، وهي صديقة لي، إن النبرة المثالية المتفائلة التي كان الشبان الشيوعيون يتحدثون بها في هذه الأيام قبل أن يكون هناك حكم شيوعي بزيمبابوي أذهلت الطلاب، فالشيوعية والشيوعيون مرتبطان في أذهانهم بالأنانية والانتهازية، ولم يخطر لهم على الإطلاق أن الشيوعية بدأت حلمًا صادقًا بعالم أفضل.

ولا تقل الخطابات التي يرسلها الرجال عن هذه الرواية عن تلك التي تبعث بها النساء، فبعضم يقول إنها فتحت أعينهم على المشاعر والتجارب التي تعيشها النساء، ويقول البعض الآخر إن ما لفت انتباههم في الرواية هي الفكرة السياسية و«أسلوب تصوير» الشخصية الأمريكية الرئيسية التي تبدو لهم الآن شخصية ذكورية إلى حد بعيد. وكثيرًا كتبت إليّ إحدى النساء لتقول إن صديقها أو زوجها أعطاها الرواية وقال إنها أثرت فيه. وفي أحيان كثيرة يكتب إليّ رجل أنه قرأ الرواية وأعجبته وأنه كان يدرس بالجامعة حينما كانت أعمال دوريس ليسينج تشعل جذوة الحركة النسائية ولذلك لم يهتم بقراءة كتبها، غير أنه يأسف الآن لذلك ويكتب لي ليخبرني بذاك الأسف.

وإني أتلقى الكثير من ردود الأفعال، وهذا يسعدني دائمًا خاصة عندما تكون ردود الأفعال تلك غير متوقعة، وقد رأيت ذات يوم متجرًا لبيع الكتب في فيرمونت مكتوب عليه «الدفتر الذهبي» ....

في اليوم التالي أعدت قراءة الرواية وتذكرت فورة الطاقة بها. وربما كان ذلك ما أحياها إلى اليوم؛ تلك «الشحنة» التي تسري فيها وتلك الحيوية الغالبة عليها. وأحيانًا تنبعث تلك الطاقة التي تتميز بها الرواية من الصراعات الدائرة داخلها، فالأسلوب الذي اتبعته في الكتابة كان مبعثه مجموعة واحدة من الأفكار وربما من أساليب الحياة. لكنّ ذلك لم يكن ما جال بخاطري وأنا أكتب الرواية، فداخل الإطار الضيق للرواية حالة من الفوران، وأحيانًا تتعارض هذه الحالة التي تكمن بالرواية مع الرسالة التي تبعث بها في ظاهر الأمر. وأول مرة جالت فيها هذه الفكرة برأسي كانت عندما قرأت رواية «الشياطين» لدوستويفسكي ووجدت الحيوية والتفاؤل يملآن نفسي بينما كانت الرواية تشاؤمية للغاية. وتختلف رواياتي الأخرى التي احتوت على نفس الكثافة الشعورية عن رواية «الدفتر الذهبي»، ومن هذه الروايات رواية «مندوب الكوكب الثامن»، مع أن الروايتين ترسمان الحدود والأطر.

وإني لألتقي بنساء في الخمسين من عمرهن ويقلن لي إنهن تأثرن بالرواية وأعطينها لبناتهن وأعجبتهن. وقد أقابل أحيانًا امرأة شابة فتقول لي: «أعطتني أمي هذه الرواية وقالت إنها مهمة لها وأنا الآن أستطيع أن أفهمها على نحو أفضل.» وغالبًا أسمع هذه الجملة: «قرأتها أمي وأنا أقرؤها الآن» وهذا يعني أن جيلين قرآها، ولكنني عرفت بالأمس أن هناك امرأة أعطتها لابنها الذي أهداها لابنته، وهذا يعني أن ثلاثة أجيال قرأت الرواية؛ لذلك أشعر حقًّا بسعادة غامرة.

أكتب حاليًّا الجزء الأول من سيرتي الذاتية، وعندما استحضرت بعض الشخصيات والأحداث التي تضمنتها رواية «الدفتر الذهبي»، توصلت إلى استنتاج مؤداه أن الأدب الروائي يعبر عن «الحقيقة» على نحو أفضل من الأعمال التي تسطر الواقع، لكن السبب وراء ذلك أمر غاية في التعقيد لم أستطع أن أفهمه بعد.

دوريس ليسينج
أغسطس/آب ١٩٩٣

مقدمة ١٩٧١

تسير بنية الرواية على ما نحوه:

هيكل أو إطار بعنوان «حكاية امرأتين مع الحرية»، وهو رواية قصيرة تقليدية تتألف من ٦٠٠٠٠ كلمة تقريبًا، ويمكن أن تكون رواية مستقلة بذاتها، ولكنها قُسِّمَت إلى خمسة أجزاء تفصل بينها المراحل المختلفة للدفاتر الأربعة: الأسود والأحمر والأصفر والأزرق. تخص هذه الدفاتر آنا ولف، إحدى الشخصيات الرئيسية في رواية «حكاية امرأتين مع الحرية». تحتفظ آنا بأربع دفاتر، وليس بدفتر واحد، لأنها تدرك أن عليها أن تفصل الأشياء بعضها عن بعض خوفًا من الدخول في حالة من التشتت والضياع ... وخوفًا من الانهيار. كانت الضغوط — الداخلية أو الخارجية — تنهي الدفاتر فترسم آنا خطًّا بالحبر الأسود الثقيل في نهاية كل واحدة، لكن عندما تكتمل هذه الدفاتر، يولد من بين أجزائها المتفرقة «الدفتر الذهبي».

على صفحات الدفاتر يتناقش الأشخاص ويضعون النظريات ويعبرون عن آرائهم وعقائدهم ويصنفون ويقسمون وأحيانًا يقومون بذلك بأصوات عامة للغاية تعبر عن روح العصر الذي نعيش فيه، حتى إن هذه الشخصيات تفقد هويتها وتصبح بلا اسم، ويستطيع القارئ أن يسميها بأسماء شخصيات المسرحيات القديمة التي تصور الصراع بين الرذيلة والفضيلة مثل: الرجل المتعصب لآرائه، والرجل الذي يستمد حريته من تخليه عن أي التزامات تجاه الآخرين، والفتاة الباحثة عن الحب والسعادة، والمرأة المتحرية للإتقان في كل الأعمال التي تؤديها، والرجل الباحث عن المرأة المخلصة، والفتاة الباحثة عن الرجل المخلص، والرجل الذي يؤمن أنه مجنون لأن الآخرين يقولون إنه كذلك، والفتاة التي تستمد قدرتها على الحياة من خلال تجربتها كل شيء، والرجل الذي يستمد وجوده من تحريكه للثورات، والرجل والمرأة

اللذان يظنان أنهما إن أفرطا في الاهتمام بهذه المشكلة الصغيرة التي تواجههما فربما ينسيان أنهما لا يجرؤان على التفكير في المشكلات الكبيرة. من ناحية أخرى عكست هذه الشخصيات بعضها بعضًا، وأظهرت بعضها ملامح بعض، وانبثقت عن هذه الشخصيات أفكارها وسلوكياتها، وشرعت ملامح كل شخصية «تذوب» في الشخصيات الأخرى واتحد بعضها مع بعض فكونوا وحدة واحدة. وفي الدفتر الذهبي الذي تكتبه آنا، تتجمع الأشياء بعضها مع بعض في النهاية وتنهار الفواصل وتذوب مع انتهاء حالة التشتت لتنتصر في النهاية الفكرة المقابلة لهذا التشتت؛ فكرة التوحد والاندماج. فآنا والرجل الأمريكي سول جرين «تتضح معالم شخصيتيهما»؛ إذ إن كلاهما مصاب بكل صفات الجنون والهوس واختلال العقل، «تظهر حقيقة» الاثنان ويذوب أحدهما في الآخر، وفي الآخرين، ويتخطيان النماذج المزيفة التي اختلقاها عن ماضيهما، وتتلاشى النماذج والصيغ التي ألفاها ليساندا نفسيهما، ويبدأ كل منهما في دعم الآخر، فعندما يستمع كل منهما إلى أفكار الآخر يرى نفسه فيه. ويصبح سول جرين الرجل الذي كان يغار من آنا ويود أن يحطمها هو من يدعمها ويعظها ويقدم لها فكرة كتابها الجديد «حكاية امرأتين مع الحرية» — والعنوان هنا ساخر بالطبع — الذي يبدأ بهذه الجملة: «كانت المرأتان وحيدتين بمسكنهما بلندن». وتتنازل آنا — التي كانت تغار من سول إلى حد الجنون وتميل إلى كونها شخصية متسلطة ولحوحة — لسول عن دفترها الجديد الأنيق؛ الدفتر الذهبي، الذي كان قد رفض من قبل أن تعطيه له، وتقترح عليه فكرة لكتابه الجديد وتكتب له أول جملة منه بالدفتر الذهبي: «هناك على إحدى منحدرات التلال الجافة بالجزائر، كان الجندي واقفًا يرقب ضوء القمر يلمع على بندقيته.» وعلى صفحات الدفتر الذهبي الذي كتبه الاثنان، لم يعد باستطاعة المرء أن يميز بين ما كتبته آنا وما كتبه سول، ولا بينهما وبين الشخصيات الأخرى بالرواية.

وقد تناول كتاب آخرون سواي هذه الفكرة؛ فكرة «التفكك»، التي تكون أحيانًا إحدى طرق العلاج الذاتي — عندما ينهار الأشخاص — التي بدورها تخلِّص النفس من الانقسامات والفواصل الزائفة. لكن هذه الرواية تعد أول ما سطره بناني عن هذه الفكرة، فيما عدا تلك القصة القصيرة الغريبة، ولكنها هنا أقرب إلى حالتها الأولية، وأقرب إلى التجربة قبل تشكلها وصياغتها في قالب الفكر وفي نماذج التصرف والسلوك، وربما أضاف قرب الفكرة إلى الحالة الأولية إلى قيمتها.

غير أن كثيرين لم يلحظوا هذه الفكرة الرئيسية، فقد حصر أصدقائي من النقاد وأعدائي منهم الرواية فور صدورها في فكرة الصراع بين الرجل والمرأة، واعتبرتها النساء سلاحًا نافعًا في حربهن مع الرجال.

ومنذ هذه اللحظة وأنا في موقف شائك، فآخر شيء كنت أود أن أفعله هو أن أرفض مساندة المرأة.

ولكي أنهي الجدل الدائر حول موقفي من تحرير المرأة، أود أن أقول إنني أؤيد تحرير المرأة بالطبع، لأن النساء يُعاملن في معظم دول العالم كمواطنات من الدرجة الثانية، كما يصرحن بذلك في حماس وثقة. ويمكننا أن نقول إن نجاح النساء مرهون بقدر جدية الآخرين في الاستماع إليهن؛ فالأشخاص الذين كانوا فيما سبق يعارضونهن أو يتعاملون معهن في لامبالاة يقولون: «نحن نؤيد مطالبهن ولكننا لا نحب هذه الأصوات الحادة والطرق غير المهذبة التي يعبرن بها عن تلك المطالب.» وهذه مرحلة حتمية ومفهومة في كل الحركات الثورية، فالمصلحون يجب أن يتوقعوا أن يتبرأ منهم أولئك الذين يقنعون بالمكاسب التي يحققها الآخرون لهم. ولا أظن أن قضية تحرير المرأة ستشهد تغييرًا كبيرًا، ليس لأن هناك شيئًا غير سليم في مطالب القائمين عليها، بل لأن هذا الطوفان الذي يجتاحنا الآن يدفع العالم أجمع إلى مرحلة جديدة تمامًا، وربما عندما نعبر هذا الطوفان — إن نجحنا في أن نعبره — ستبدو مطالب قضية تحرير المرأة شيئًا عديم القيمة عفى عليه الزمن.

لكن هذه الرواية لا تنادي بتحرير المرأة، وإنما تصور مشاعر العنف والعداء والضيق التي تنتاب النساء، وترسم تلك المشاعر على الورق لتضعها بين أيدي القراء، غير أنه من الواضح أن ما تفكر فيه كثيرات ويشعرن به ويعايشنه قد يصيب غيرهن بدهشة بالغة، فقد أشهر كثيرون في وجهي أسلحة قديمة للغاية، جاءت على رأسها كالعادة اتهامي بأنني «غير أنثوية» وأنني «كارهة للرجال». ورد فعل كهذا يعد أمرًا أزليًّا، فالرجال — وكثير من النساء — كانوا يرون أن النساء اللاتي نادين بحق المرأة في الاقتراع كن غير أنثويات وأميل إلى الذكورة والوحشية. وأيد ذلك أنني لم أقرأ قط عن أي مجتمع على وجه الأرض يدون مطالبة النساء بأشياء تفوق تلك التي منحتهن الطبيعة دون أن يكون هذا هو رد فعل الرجال تجاهه ومعهم بعض النساء. وقد أثارت رواية «الدفتر الذهبي» غضب جماعة من النساء، فتلك الأحاديث الساخطة والمتذمرة والثرثرة التي تدور بين النساء وهن جالسات بحجرة المطبخ، أو ملامح الانحراف الجنسي التي يفصحن عنها هي آخر ما تجهر به النساء … خشية

أن يسمعهن أحد الرجال. وتجبُن النساء إلى هذا الحد لأنهن ظللن شبه مستعبدات لفترات طويلة، فعدد لا يزال قليلًا منهن مستعد لدعم ما يفكرن فيه فعلًا ويشعرن به ويعايشنه أمام رجالهن، ومعظم النساء يركضن في ذعر مثل جِراء ألقاهن شخص بالحجارة إذا اتهمهن رجل بأنهن غير أنثويات أو عدوانيات أو بأنهن يفقدنه رجولته. وإني أظن أن المرأة التي تقدم على الزواج أو تدخل في أي علاقة جادة مع رجل يلوح في وجهها بمثل هذا التهديد تستحق كل ما قد تعانيه، ذلك أن مثل هذا الرجل لا يعدو أن يكون شخصًا متنمرًا لا يعرف أي شيء عن العالم الذي يعيش فيه أو عن تاريخه، فقد اضطلع الرجال والنساء بعدد لا نهائي من الأدوار في الماضي ولا يزالون يقومون بذلك في المجتمعات المختلفة في هذا العصر، وهذا الرجل إما جاهل أو خائف من أن يشذ عن الإطار السائد، أي أنه رجل جبان ... لا يختلف الشعور الذي يداخلني الآن وأنا أكتب هذه الملاحظات عن الشعور الذي كان سينتابني لو كنت أكتب خطابًا مبعوثًا إلى قاطني الماضي البعيد؛ فأنا على يقين بأن كل الأشياء التي نسلم بصحتها الآن ستُنَحَّى جانبًا تمامًا في العقد المقبل.

(فلماذا إذن نؤلف الروايات؟ نعم، لماذا! أظن أن علينا أن نستمر في العيش ...).

بعض الكتب لا تُقرأ بالطريقة الصحيحة، إما لأنها تتخطى مرحلة من مراحل إبداء الرأي أو لأنها تبرز بعض المعلومات عن أشياء لم يشهدها المجتمع بعد. وقد كتبت هذه الرواية وكأن الاتجاهات التي خلفتها حركات تحرير المرأة وُجدت بالفعل. وقد نُشرت عام ١٩٦٢، أي منذ عشر سنوات، ولو نشرت الآن للمرة الأولى ربما أتيح لها أن تُقرأ، بدلًا من أن تثار تجاهها ردود الأفعال فقط. لقد تغيرت الأشياء في سرعة كبيرة، حيث اندثرت على سبيل المثال بعض الاتجاهات التي اتسمت بالرياء، فمنذ عشر سنوات أو خمس، شهد العصر اتجاهًا ينزع إلى التمرد الجنسي، فانتشرت الروايات والمسرحيات التي ألفها رجال يصوبون سهام النقد الغاضبة إلى المرأة، وخاصة النساء الأمريكيات، وإن كانت المرأة البريطانية تعرضت أيضًا لمثل هذه الانتقادات. صور هؤلاء الكتّاب النساء على أنهن متنمرات وخائنات، لكن أكثر الصفات التي ألصقها هؤلاء الكتاب بالمرأة هي أنها تقف حجر عثرة في طريق الرجل وتثبط همته وعزيمته. وقد استقبلت هذه الاتجاهات التي ظهرت في كتابات الرجال على أنها أفكار مسلم بها، وتُقبلت كأسس فلسفية سليمة، طبيعية تمامًا، ولم يُنظر إليها بالطبع على أنها كارهة للمرأة أو عدوانية أو عصابية. ولا تزال مثل هذه الاتجاهات مستمرة بالطبع، ولكن من المؤكد أن الوضع شهد تحسنًا.

كنت مندمجة جدًّا في كتابة هذه الرواية حتى إنني لم أفكر كيف سيتقبلها الآخرون. كنت منهمكة لهذا الحد ليس فقط لأن عملية الكتابة كانت صعبة، فقد كتبت هذه الرواية من البداية إلى النهاية دون توقف وأنا أحتفظ في ذهني بالخطة الخاصة بها ولم يكن هذا بالأمر اليسير، بل نتيجة للأشياء التي تعلمتها وأنا أكتب. ربما عندما يضع المرء نفسه في إطار ضيق ويحيط نفسه بالقيود تنبثق منه أفكار جديدة لم يتوقعها، فكل الأفكار والتجارب التي لم أنظر إليها يومًا على أنها تخصني خرجت أثناء الكتابة. ولم تكن التجارب التي انعكست على صفحات الرواية هي مصدر الدهشة الوحيد لي، فالوقت الفعلي الذي استغرقته عملية الكتابة أذهلني أيضًا، وغيرتني هذه التجربة. وعندما انتهيت من هذه التجربة التي أوضحت لي الكثير من الأمور، وسلمت مخطوطة الرواية إلى الناشر وإلى أصدقائي، أدركت أنني كتبت رواية عن الصراع بين الرجل والمرأة، وسرعان ما اكتشفت أنه لا شيء مما قلته في تلك اللحظة يمكن أن يغير هذا التوصيف.

ولكن جوهر الرواية وتنظيمها وكل شيء فيها يقول على نحو مباشر وغير مباشر إننا يجب ألا نقسم الأشياء، وألا نفصل بينها.

فقد كان «الأَسْر والحرية، الخير والشر، القَبول والرفض، الرأسمالية والاشتراكية، الجنس والحب ....» هو ما وصفته آنا في رواية «حكاية امرأتين مع الحرية». كانت تعبر عن فكرة ما، تصيح بها، تعلن عن رأيها بالطبول والأبواق ... أو هكذا تخيلتْ. وقد نسجت على منوالها لمّا كنت أؤمن بأنه في رواية تحمل عنوان «الدفتر الذهبي» ربما يُفترض أن الجزء الداخلي الذي يحمل العنوان نفسه هو الجزء الرئيسي الذي ترتكز عليه الرواية والذي يكشف عن القضية التي تطرحها الرواية.

ولكن لم يكن الأمر كذلك.

هناك بعض الأفكار الأخرى نسجت خيوط هذه الرواية، التي أمضيت وقتًا عصيبًا في كتابتها، فالأفكار والمواضيع التي ظللت أحتفظ بها في ذهني لسنوات تجمعت معًا.

كانت إحدى هذه الأفكار تتمثل في أنه لا يمكن للمرء العثور على واحدة من روايات النصف الثاني من القرن الماضي استطاعت أن تصف المناخ الفكري والأخلاقي الذي كان سائدًا في بريطانيا منذ مائة عام مثلما عكست روايات تولستوي صورة روسيا الفكرية والأخلاقية في هذا الوقت، أو مثلما أبرزت روايات ستيندال ملامح الفكر والخلق في فرنسا آنذاك. (وعند هذه النقطة على المرء أن يبرئ ذمته.) فروايتا

«الأحمر والأسود» و«لوشين ليولين» تعرِّفان القارئ بفرنسا كأنه يعيش فيها، وتقدم رواية «آنا كارنينا» صورة واضحة عن روسيا. مع ذلك لا توجد رواية من روايات العصر الفيكتوري تفيد القارئ إلى حد ما في التعرف على بريطانيا. فتوماس هاردي يخبرنا كيف تكون الحياة عندما تكون فقيرًا، وكيف أنه قد يكون لدى المرء تصورات أكبر بكثير من الإمكانات المحدودة المتاحة في هذا الوقت، وكيف يمكن يكون المرء ضحية. أما كتابات جورج إليوت فمُرْضِية ولكن ليس إلى حد بعيد، وأظن أنها دفعت ثمن أنوثتها من العصر الفيكتوري، فكان عليها أن تظهر في صورة امرأة صالحة مع أنها لم تكن كذلك بالمقاييس المزدوجة التي سادت في هذا العصر، فثمة أشياء كثيرة لم تفهمها لأنها كانت من الكتاب المعنيين بالأدب الأخلاقي. وربما كانت كتابات ميريدث هي الأقرب إلى الصورة الواقعية، لكن ما يعجب له أن الرجل لم ينل التقدير الذي يستحقه. وحاول ترولوب أيضًا أن يكتب في هذا الموضوع لكنه افتقد النظرة الواسعة. ولم تنعكس قوة الأفكار النابعة من الواقع وتضاربها في أي رواية كما انعكست في واحدة من السير الذاتية التي كتبها ويليام موريس.

حينما أقدمت على هذه المحاولة افترضت أن ذلك المؤشر الذي يتمثل في رؤية المرأة للحياة هو بقدر قوة المؤشر الذي يعكس رؤية الرجل لها وفعاليته. نحيت هذه الإشكالية جانبًا، أو بالأحرى، لم أضعها في اعتباري، وقررت أنه لكي أنقل «الإحساس» الأيديولوجي الذي يميز منتصف القرن الذي نعيش فيه، لا بد أن تدور الأحداث وسط الاشتراكيين والماركسيين، لأن الأوساط الاشتراكية المختلفة هي التي شهدت النقاشات العظيمة التي تميز عصرنا الحالي؛ فالحركات السياسية والحروب والثورات كانت في نظر المشاركين فيها حركات اشتراكية مختلفة، أو حركات ماركسية تتقدم أو تتراجع أو تهدف إلى احتواء القوى الأخرى. (أرى أن علينا على الأقل أن نقر بأنه عندما ينظر الآخرون وراءهم ليبصروا زماننا يحتمل أن يروه على نحو مختلف تمامًا عما نراه نحن الآن، وذلك كما نرى نحن الآن الثورتين الإنجليزية والفرنسية، وحتى الثورة الروسية، برؤية تختلف عن الأشخاص الذين عاصروا هذه الثورات). غير أن «الماركسية» والنظريات المتفرعة عنها تضم أفكارًا كامنة في كل مكان، وفور أن «تطل هذه الأفكار برأسها» حتى يتشربها الأشخاص وتصبح جزءًا من طريقة التفكير المعتادة. فالأفكار التي كانت مقصورة على اليسار المتطرف منذ ثلاثين أو أربعين عامًا انتشرت لتشمل السياسيين اليساريين بصورة عامة منذ عشرين عامًا، وانبثق منها خلال العشر سنوات الأخيرة الفكر الاجتماعي العام الخاص باليمين

واليسار. ولم تَعُدْ هذه الأفكار التي تشربها النسيج العام للمجتمع نوعًا من أنواع القوة، لكنها سادت العصر، وبرواية مثل التي كنت أحاول أن أكتبها كان يجب أن تكون محورية.

إحدى الأفكار الأخرى التي ظللت أستخدمها لفترة طويلة هي أن تكون الشخصية الرئيسية مشتغلة بأي نوع من أنواع الفنون، ثم تعاني «أزمة انقطاع الإلهام»، وذلك لأن استخدام شخصية الفنان، سواء أرسامًا كان أو كاتبًا أو موسيقيًّا، في الأعمال الفنية كمثل أعلى ظل سائدًا لفترة من الوقت. وكل الكتاب المعروفين ومعظم المؤلفين المغمورين استخدموا هذه الفكرة. وكان هذان النموذجان — نموذج الفنان والنموذج المقابل له المتمثل في شخصية رجل الأعمال — هما جناحا ثقافتنا، وصُوِّر أحدهم على أنه شخص فظ متبلد الشعور، والآخر على أنه مبدع خلاق تبرر له أعماله كل المشاعر والآلام المبالغ فيها والنرجسية اللامتناهية، بنفس الطريقة التي تجعلنا مشروعات رجل أعمال وأمواله نغفر له غروره اللامتناهي ومبالغاته الشعورية. تعودنا على ما هو بحوزتنا، ونسينا أن كون الفنان مثلًا يُحتذى به هو فكرة جديدة علينا. فمنذ مئات السنين لم تجر العادة على أن يكون الأبطال فنانين، كانوا مقاتلين وصانعي إمبراطوريات ومستكشفين ورجال دين وسياسيين، تعازينا للنساء اللاتي لم ينجحن في أن يحذون حذو فلورانس نايتنجيل. وبات أصحاب الشخصيات غريبة الأطوار هم فقط من رغبوا في أن يصبحوا فنانين، وكان عليهم أن يناضلوا من أجل أن يصبحوا كذلك. قررت أن أدخل تعديلًا على هذه الفكرة السائدة في زماننا، وهي استخدام شخصية «الفنان» أو «الكاتب». قررت أن يعاني هذا الفنان مما يعرف باسم «أزمة انقطاع الإلهام» وأن أناقش أسباب هذه الأزمة، وكان عليّ أن أربط هذه الفكرة بالتناقض بين ضخامة مشكلات مثل الحرب والمجاعات والفقر من ناحية وضآلة الفرد الذي يحاول أن يصورها من ناحية أخرى. ولكن ما لم أعد قادرة فعلًا على احتماله هو تصوير الفنان وكأنه شخص مثالي مصاب بالنرجسية البالغة قابع في برج عاجي بمعزل عن الآخرين. ويبدو أن الشباب فطنوا لهذا الأمر بطريقتهم وعدلوه خالقين ثقافة تخصهم تضم مئات الآلاف من الأشخاص الذين ينتجون الأفلام، أو يساعدون في إنتاجها، أو يصدرون الصحف بشتى أنواعها، أو يؤلفون الموسيقى، أو يرسمون اللوحات، أو يؤلفون الكتب، أو يشتغلون بالتصوير الفوتوغرافي. فقد حطموا تمثال هذا المبدع الحساس المنعزل عن العالم بخلق مئات الآلاف منه. وبلغ هذا الاتجاه ذروته ثم اختفى لذا سيكون هناك كالعادة رد فعل تجاه هذا الأمر.

تفتح فكرة استخدام شخصية «الفنان» بالأعمال الأدبية الباب أمام فكرة أخرى، وهي وضع الذات في بؤرة الاهتمام. فعندما بدأت في ممارسة الكتابة، كان الكتاب يتعرضون لضغوط حتى لا يضفوا على أعمالهم أي صبغة تركز على «الذات» أو «الفرد». وبدأت هذه الضغوط من داخل الحركات الاشتراكية كامتداد لمبدأ النقد الأدبي الاجتماعي الذي ظهر بروسيا في القرن التاسع عشر على أيدي مجموعة من الفنانين الموهوبين، أكثرهم شهرة هو بلينسكي، وكانوا يستخدمون الفنون، خاصة الفنون الأدبية، في حربهم ضد القمع وحكم القياصرة. وسرعان ما انتشرت هذه الأمور في كل مكان، ولاقت استجابة من البريطانيين في الخمسينيات مع ظهور فكرة «الانتماء والولاء»، ولا تزال هذه الضغوط ذات تأثير قوي في الدول الشيوعية. أما على مستوى الحياة اليومية، فكان جوهر هذا الاتجاه يتمثل في التقليل من شأن المشاكل الشخصية بمقارنتها بالأحداث العظيمة مثل حريق روما. ولم يكن من السهل أن يتحمل المرء وطأة هذه الضغوط خاصة عندما يكون من يمارسها هم أقرب الناس إليه وأعزهم إلى قلبه؛ الذين كانت كل أفعالهم تحظى بأقصى تقدير واحترام، مثل محاربة التمييز القائم على أساس اللون في جنوب أفريقيا. ولكن الروايات والقصص والفنون بجميع أنواعها باتت مغرقة أكثر في هموم الفرد. وفي الدفتر الأزرق تدون آنا المحاضرات التي كانت تلقيها: «كان الفن في العصور الوسطى فنًّا اشتراكيًّا متجردًا من الملامح الفردية، كان نابعًا من إدراك الجماعة، لم يكن الفن آنذاك متأثرًا بتلك النزعة الفردية المحزنة المسيطرة على الفن في العصر البرجوازي. وسوف يأتي اليوم الذي نتخطى فيه تلك «الأنا» الواضحة والمسيطرة على الفن الذي يدور حول الفرد، وسوف نعود مرة أخرى إلى الفن الذي يعبر عن الإخاء والذي يجب أن يتحلى به البشر وعن مسئولية الإنسان تجاه بني جلدته، وليس عن تلك الحدود الفارقة التي تفصل الإنسان عن غيره من البشر وتميزه عنهم. إن الفن القادم من الغرب يقترب أكثر وأكثر من كونه صرخة ألم تطلقها الأرواح المعذبة التي تدون معاناتها، إن الألم أصبح هو الحقيقة الأكثر تأصلًا فينا ...» هذه هي نوعية المحاضرات التي كنت ألقيها. ومن نحو ثلاثة أشهر، أثناء إحدى هذه المحاضرات، بدأت أتلعثم ولم أستطع أن أنهي حديثي ...».

تلعثمت آنا لأن هناك شيئًا كانت تحاول أن تتهرب منه، فما أن يبدأ تيار أو ضغط معين، حتى نفقد كل الطرق لتجنبه، ويبدو أنه «ليس» هناك سبيل للهروب من الإغراق في الفردية، وهذه هي المسئولية التي يحملها الكاتب على عاتقه في ذلك

الوقت. لا يمكن أن يتجاهلها، لا يمكن أن يؤلف كتابًا عن بناء جسر أو سد من دون أن يعكس على صفحاته صورة عقول من بنوه ومشاعرهم. (قد يظن البعض أن هذا نوع من الكاريكاتير، ولكنني لا أسخر على الإطلاق، «فالاختيار» بين هذين الأمرين مثل جوهر النقد الأدبي في هذا الوقت.) وأخيرًا توصلت إلى أن السبيل إلى الخروج من دوامة الانزعاج من الكتابة عن «المشكلات الشخصية التافهة» هو أن نتفق أنه ليس هناك شيء شخصي، بمعنى أنه لا يوجد شيء يتميز بكونه خاصًّا بفرد بعينه. فحينما يكتب المرء عن نفسه فهو يكتب عن الآخرين، لأن مشكلاته وآلامه وأفراحه ومشاعره وأفكاره الاستثنائية والمميزة لا يمكن أن تكون ملكه وحده، ومن هنا لكي نحل مشكلة «المذهب الذاتي» الذي يتمثل في الانغماس داخل شئون الفرد الذي يعد كائنًا ضئيلًا ولكنه في الوقت ذاته مغرق في عدد لامتناهٍ من الاحتمالات البشعة والرائعة؛ لكي نحل هذه المشكلة يجب أن ننظر إلى الفرد بوصفه تمثيلًا مصغرًا للعالم، وبهذه الطريقة نتخطى ما هو شخصي وذاتي، وأن نحول ما هو شخصي إلى شيء عام، كما تفعل الحياة دائمًا، بل أن نصنع من التجربة الخاصة شيئًا أكبر، تلك التجربة التي يظن المرء في خصوصيتها قبل أن ينضج، كأن يقول مثلًا «إني أحب» أو «هناك شعور بعينه يتخللني أو يتخلل نفس شخص آخر». فالنضج هو أن يدرك المرء أن التجربة الفردية المميزة والرائعة هي تلك التجربة التي يعيشها الجميع.

إحدى الأفكار الأخرى التي خطرت لي تمثلت في أنه إذا جاءت بنية الرواية بالشكل الصحيح، فسوف يخبر ذلك بشيء عن الرواية التقليدية. إن الجدل الدائر حول الرواية يعود إلى بداية ظهور الرواية في سماء الأدب، وليس شيئًا حديثًا كما قد يتخيل المرء من قراءاته للكتابات الأكاديمية المعاصرة. وددت أن أقول شيئًا عن الرواية التقليدية عندما ركزت هذا الكم الكبير من الأفكار في الرواية القصيرة التي عنوانها: «حكاية امرأتين مع الحرية»، أردت أن أوضح ذلك الشعور بالانزعاج الذي يخالج الكاتب عندما ينتهي أمر من الأمور فيقول: «كم كان هذا القدر الذي تصورت أنني سأقوله عن الحقيقة ضئيلًا، وكم كان ما وضعت عليه يدي من بين كل هذه الأمور المعقدة زهيدًا، وكيف يمكن أن يعكس هذا الكتاب الصغير المنمق الحقيقة إذا كان ما عايشته قاسيًا للغاية ويفتقر إلى أي بنية أو شكل؟»

كان الهدف الرئيسي الذي أنشده هو أن تعكس بنية الرواية رأيًا وموقفًا من دون كلمات: أن تتكلم الرواية بلسان بنيتها.

ولكن كما أوضحت من قبل لم يلحظ أحد ذلك.

أحد الأسباب التي تقف وراء هذا الأمر هو أن الرواية تساير خصائص الرواية الأوروبية أكثر من مسايرتها لسمات الرواية الإنجليزية، أو بالأحرى، سمات الرواية الإنجليزية كما يراها الناس الآن، فالروايات الإنجليزية تتضمن شخصيات مثل كلاريسا وتريسترام شاندي وجوزيف كونراد، بالإضافة إلى شخصيات الكوميديا التراجيدية.

ولكن مما لا شك فيه أن محاولة المرء أن يكتب رواية عن الأفكار يعد إقدامًا منه على الدخول في طريق مليء بالمعوقات؛ فالانغلاق الفكري الذي تتسم به ثقافتنا يصل إلى حد بعيد، ومن أمثلة ذلك أنه لعقود طويلة كان الفتيان والفتيات الواعدون يتخرجون في الجامعة ويصرحون في فخر بأنهم لا يعرفون شيئًا عن الأدب الألماني، إذ كان هذا هو التيار السائد. أما رجال العصر الفيكتوري فكانوا يعرفون كل شيء عن الأدب الألماني، لكنهم لم يحاولوا أن يزيدوا من معلوماتهم الضئيلة عن الأدب الفرنسي ولم يسبب لهم ذلك أي شعور بتأنيب الضمير.

لم تأتِ الآراء النقدية النابهة التي أبداها أشخاص ماركسيون، أو أشخاص يعتنقون المذهب الماركسي، في الرواية من قبيل المصادفة، لكنهم أدركوا ما حاولت أن أقوم به. ويرجع ذلك إلى أن المذهب الماركسي ينظر إلى الأمور بوصفها وحدة متكاملة وفي ضوء علاقتها بالأشياء الأخرى، أو يحاول فعل ذلك، ولكن القصور الذي يعانيه هذا المذهب ليس هو موضوعنا، فالأشخاص المتأثرون بالمذهب الماركسي يسلمون بأن الحدث الذي تشهده سيبيريا سوف يؤثر في مجريات الأمور في بوتسوانا. وأرى أن الماركسية هي أول محاولة يشهدها هذا العصر، فيما عدا الديانات الرسمية، لخلق وعي عالمي وأخلاق عالمية، ولكنها لم تسر في الطريق الصحيح، وظل هذا المذهب ينقسم على نفسه، مثل كل الديانات الأخرى، إلى مذاهب أصغر وطوائف وملل، ولكنها كانت محاولة.

وضعتني محاولتي لمعرفة ما كنت أحاول أن أقوم به في مواجهة مع النقاد، وأصبحت مهددة بأن أثير انتباههم. ويظن الجمهور أنهم اعتادوا على هذه المناوشات المزعجة بين النقاد والكتاب أو النقاد وكتاب المسرح وباتت أمرًا لا يثير دهشتهم، فهم ينظرون إلى الطرفين على أنهما فريقان من الأطفال المشاكسين، ويعجبون أحيانًا لأمر الكتّاب الذين ينهال عليهم المديح، أو على الأقل تنجذب إليهم الأنظار ويشعرون دائمًا بأن كرامتهم جرحت، والجمهور لديهم حق فيما يرون لأسباب لن أخوض هنا في ذكرها. بالإضافة إلى ذلك، شكلت تجاربي الأولى والقيِّمة في الكتابة نوعًا من

الوعي بالنقاد والمحررين لدي، ولكن بخصوص روايتي هذه فقد افتقدت هذا الوعي. فقد ظننت أن أغلب النقد الموجه للرواية سخيف للغاية ولا يمكن أن يكون حقيقيًّا، ولكنني عندما استعدت توازني أدركت أين تكمن المشكلة؛ تكمن المشكلة في أن الكتاب يبحثون في النقاد عن «شخصية مقابلة» لهم، هذه الشخصية الأخرى التي تفوقك ذكاء والتي تبصر ما أنت آخذ في الوصول إليه، وتحكم عليك من خلال نجاحك في الوصول إلى هدفك أو إخفاقك في أن تنال ما تنشد. أنا لم أقابل في حياتي كاتبًا يواجه في النهاية هذا الشخص النادر الوجود، الناقد الحقيقي، دون أن يتخلى عن جنون العظمة ويجلس منتبهًا في امتنان؛ وقد وجد أخيرًا ما يظن أنه بحاجة إليه. إن ما يطلبه الكاتب هو أمر مستحيل؛ لماذا يتوقع أنه سيعثر على ذلك الشخص الاستثنائي، الناقد المثالي (الذي يعثر عليه المرء مصادفة)، ولا يوجد أي شخص آخر يستطيع أن يفهم ما يحاول الكاتب أن يقوم به؟ لن يستطيع أي شخص أن يسبر أغوار فكرة ما مثل الشخص الذي صاغها وعبر عنها.

لن يستطيع النقاد والمحررون أن يقدموا ما يتظاهرون بأنهم يقدمونه، ذلك الشيء الذي يلح عليه الكتاب في سخف وطفولية.

وذلك لأن النقاد لم يتعلموا أن يقوموا بهذا الأمر، ولكن ما تعلموه كان عكس ذلك.

فالأمر يبدأ في عمر خمس أو ست سنوات، عندما يلتحق الطفل بالمدرسة، يبدأ الأمر بالدرجات، والمكافآت، و«الترتيب» و«المستويات» والنجوم، وفي بعض الأماكن لا يزالون يستخدمون الشرائط. طريقة التفكير هذه التي تغرس في الطفل أن الحياة سباق للخيل وترسخ مبدأ الخاسر والرابح تؤدي إلى مثل هذا الحكم: «هذا الكاتب يسبق ذاك أو يتخلف عنه بخطوات قليلة. وذاك الكاتب تفوق بكتابه الأخير على هذا الكاتب.» ويتعلم الطفل من البداية أن يفكر بمثل هذه الطريقة، يتعلم أن يقارن، أن يربط أحكامه بالنجاح أو بالفشل. إنه نظام قائم على استبعاد الأشخاص الأضعف من المنافسة، فهم يواجهون بمن يحبطهم ويتخلفون، ويبقى عدد قليل من الرابحين يتنافس بعضهم مع بعض طوال الوقت. وأظن — مع أنه ليس هناك مجال الآن للإسهاب في الحديث عن هذا الأمر — أن المواهب التي يمتلكها أي طفل، بصرف النظر عن المقياس الرسمي لمستوى ذكائه، يمكن أن تظل معه طوال حياته وتثري فكره وفكر الآخرين جميعًا إذا لم تُعامَل على أنها بضائع بأسواق النجاح لكل منها قيمة محددة.

أحد الأشياء الأخرى التي يتعلمها الطفل منذ نعومة أظفاره هو ألا يثق بأحكامه، فالأطفال يتعلمون أن يخضعوا إلى المرجعية، وأن يبحثوا عن آراء الآخرين وقراراتهم، وأن يستشهدوا بها ويذعنوا لها.

في المحيط السياسي يتعلم الطفل أنه شخص حر، يؤمن بالديمقراطية، يمتلك إرادة حرة وفكرًا حرًّا، ويحيا في بلد حر، ويقرر لنفسه ما يريد. وفي الوقت ذاته يكون أسير الافتراضات والعقائد الخاصة بزمنه التي لا يحدث أنه يشكك بها، لأن أحدًا لم يخبره من قبل عنها. وعندما يصل الفتى إلى العمر الذي يكون عليه أن يختار فيه بين العلوم والآداب (نحن لا نزال نسلم بأن الاختيار بينهما أمر حتمي)، يختار الآداب لأنه يشعر أنها تنطوي على المشاعر الإنسانية والحرية وحق الاختيار، ولكنه لا يعلم أن أحد الأنظمة قَوْلَبَه، لا يعلم أن هذا الاختيار نفسه هو نتيجة لتقسيم زائف متأصل في قلب ثقافتنا. والأشخاص الذين يستشعرون هذا الأمر ولا يرغبون في أن يتعرضوا لمزيد من عمليات القولبة يميلون نحو الابتعاد محاولين على نحو غريزي — يكاد يكون لاإراديّ — أن يعثروا على عمل لا ينتهي بهم إلى الانقسام على أنفسهم. في جميع مؤسساتنا — بدءًا من مؤسسات الشرطة ووصولًا إلى المؤسسات الأكاديمية، ومن الأوساط الطبية إلى الدوائر السياسية — لا نهتم كثيرًا بمن يبتعدون، فعملية الاستئصال تلك تجري طوال الوقت وتستبعد منذ البداية هؤلاء الذين يمكن أن يكون لديهم ملكات إبداعية وإصلاحية، وتحافظ على الذين ينجذبون إلى شيء ما لأنهم أحبوه بالفعل، فربما يترك رجل الشرطة الشاب الخدمة لأنه يشعر أنه لا يحب ما عليه عمله، وقد تعتزل معلمة شابة مهنة التدريس لأنها تشعر أن مثاليتها باتت مصدرًا للتوبيخ. إن الآلية الاجتماعية تسير في طريقها دون أن يلحظها أحد، ولكنها لا تقل قوة عن أي آلية أخرى تبقي على الصرامة والقمع داخل مؤسساتنا.

يصبح هؤلاء الأطفال الذين قضوا العديد من السنوات داخل هذا النظام التدريبي نقادًا ومحررين، ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا للكاتب أو الفنان الأحكام القائمة على الإبداع والتخيل التي يبحث عنها. ما يمكنهم أن يقوموا به، وما يبرعون في القيام به، هو أن يخبروا الكاتب إلى أي مدى يتوافق كتابه أو مسرحيته مع الاتجاهات الفكرية والشعورية الحالية، ومع الآراء والمعتقدات السائدة. إنهم يقومون بوظيفة ورق دوار الشمس الذي يستخدم في الاختبارات الكيميائية، يعملون كمقاييس مثل تلك التي تخبرنا قوة الرياح واتجاهها، إنه شيء مذهل. إنهم أكثر مؤشرات الرأي العام حساسية، فأروقة النقد هي أسرع مكان تتجلى فيه التغييرات التي تطرأ على

الحالات المزاجية والآراء بعد الأوساط السياسية، وهذا لأن هؤلاء الأشخاص تعلموا أن يبحثوا خارج أنفسهم عن آرائهم، وأن يكيفوا أنفسهم مع أفكار الأشخاص الذين يعدون مرجعيات، يتأقلمون مع «الآراء الواردة»؛ نعم، هذا هو الوصف المناسب لها.

ربما لا يكون هناك طريقة تعليمية أخرى، غير أني لا أؤمن بذلك. لكننا إذا وضعنا على الأقل التوصيف المناسب للأشياء ودعوناها بأسمائها الصحيحة، فسيكون ذلك شيئًا مفيدًا. وما يجب أن يقال لكل دارس ويعاد على مسامعه خلال سنوات الدراسة هو شيء من هذا القبيل: «سوف تُلَقَّنون أفكارًا ومَبادِئَ مُحَدَّدة؛ فنحن لم نُنْشِئْ بَعْدُ نظامًا تعليميًّا لا يقومُ على التَّلقين، نَأْسَفُ لذلك، ولكن هذا هو أفضل ما يمكننا تقديمُه. إنَّ ما تتعلمونه هنا هو مزيجٌ من الأفكارِ الحالية المُكَوَّنة سلفًا والاختياراتِ التي تنزع إليها هذه الحضارةُ تحديدًا. وأقلُّ نظرةٍ على التاريخ ستُظهِر أن هذه الأمورَ زائلةٌ لا محالة. إن من يعلمونكم هم أناسٌ استطاعوا أن يُكَيِّفُوا أنفسَهم مع نظامٍ فكريٍّ وَضَعَه أسلافُهم، إنه نظامٌ تَتَوارثَه الأجيال دون تغيير. وهؤلاء الذين سيُظْهِرون تصميمًا وتمييزًا يفوق الآخرين سنُشَجِّعهم على ترك هذا النظام والبحث عن طرق يعلمون بها أنفسَهم، ويدربونها على تشكيل آراء وأحكام نابعة منهم. أما هؤلاء الذي سيبقون، فعليهم أن يتذكروا دائمًا أنهم يَتَقَوْلَبون ويتشكلون حتى يسايروا احتياجات هذا المجتمع المحدودةَ والخاصَّة.»

وإني مثل كل الكتاب الآخرين أتلقى عادة خطابات من الشباب المقدمين على كتابة رسائل علمية أو مقالات عن أعمالي، تأتيني هذه الخطابات من جميع البلدان، ولكن معظمها يرسل من الولايات المتحدة. في كل الخطابات توجد هذه الجملة: «من فضلك أرسلي لي قائمة بالمقالات التي كتبت عن أعمالك، وأسماء النقاد الذين كتبوا عنها، أعني المرجعيات.» ويسأل هؤلاء الطلاب أيضًا عن العديد من التفاصيل الأخرى التي لا يكون لها دور في حياتي، ولكنهم علموا أنها هامة، يسألون كأنهم مسئولو قسم الهجرة يريدون أن يضعوا ملف معلومات عني.

هذا ما أقوله عادة ردًّا على هذه الطلبات: «عزيزي الطالب: أنت مجنون. لمَ قضيت كل هذه الشهور والسنوات تكتب صفحات مطولة عن كتاب واحد، أو حتى مؤلف واحد وهناك مئات الكتب تنتظر منك أن تقرأها؟! ألا ترى أنك ضحية نظام فتّاك؟ إذا كنت اخترت بنفسك أعمالي لتكون موضوع رسالتك، وإذا تحتم عليك أن تكتب رسالة — وصدقني أنا ممتنة جدًّا لأن ما كتبته شيء مفيد من وجهة

نظرك — فلِمَ لا تقرأ بنفسك ما كتبتُ وتفكر فيه، وتختبره في ضوء حياتك وخبراتك؟ لا تهتم بالأساتذة، الأخيار منهم والأشرار.»

وهذا هو الرد: «عزيزتي الكاتبة، يجب أن أعرف ما يقوله الأشخاص ذوي المرجعيات عن أعمالك، لأنني إذا لم أستشهد بأقوالهم فلن يعطيني أستاذي أي درجة.»

يعد هذا النظام التعليمي نظامًا دوليًّا، متطابقًا في كل البلدان، من جبال الأورال إلى يوغوسلافيا، ومن مينيسوتا إلى مانشستر.

والفكرة الأساسية هنا هي أننا اعتدنا إلى حد بعيد على هذا النظام، ولم نعد نرى إلى أي حد هو بالغ السوء.

أنا لم أعتد عليه، لأنني تركت المدرسة عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. في وقت من الأوقات شعرت بالأسف حيال هذا الأمر، وكنت أظن أنني خسرت شيئًا قيمًا، ولكنني الآن أشعر أنني كنت محظوظة لأنني هربت من هذا النظام. وبعدما نشرت رواية «الدفتر الذهبي» جعلت شغلي الشاغل هو أن أستكشف الآليات الأدبية، وأن أتفحص خطوات صنع الناقد أو المحرر. تفحصت عددًا كبيرًا من أوراق الامتحانات ولم أستطع أن أصدق ما رأيت، وحضرت فصولًا لتدريس الأدب، ولم أستطع أن أصدق ما سمعت.

ربما يظن البعض أن رد فعلي هذا مبالغ فيه وغير مبرر لأنني لم أكن يومًا جزءًا من هذه المنظومة، ولكنني أرى أنه ليس مبالغًا فيه على الإطلاق، وأن رد الفعل الآتي من خارج المنظومة هو شيء ذو قيمة لأنه ببساطة يمثل رأيًا غير تقليدي وغير متحيز لأن صاحبه لا يدين بالولاء لنظام تعليمي معين.

لم أعد أواجه صعوبة في الرد على التساؤلات التي كانت تجوب رأسي بعدما تفحصت النظام التعليمي الذي يصنع النقاد: لم يتسمون بالانغلاق الفكري وضيق الأفق ويُشَخْصِنون الأمور؟ لماذا يحولون دائمًا الكل إلى أجزاء، وينتقصون من قدر الأمور؟ لماذا يولعون بالتفاصيل ولا يهتمون بالكل المتكامل؟ لماذا يرون «الناقد» دائمًا شخصًا باحثًا عن الأخطاء؟ لماذا يرون دائمًا أن الكتّاب في صراع بعضهم مع بعض، ولا يرون أن بعضهم يكمل أدوار بعض؟ لأنهم هكذا تعلموا أن يفكروا. إن هذا الشخص رفيع القدر الذي يفهم ما تقوم به، ويفهم أهدافك التي تنشدها، ويستطيع أن يقدم لك نصيحة ونقدًا بناءً غالبًا سيكون شخصًا من خارج الوسط

الأدبي، والجامعي أيضًا. ربما يكون طالبًا مبتدئًا لا يزال من محبي الأدب، أو قارئًا نهمًا ذا فكر عميق يتبع غريزته في الحكم على الأمور.

وأقول للطلاب الذين يضطرون إلى قضاء عام أو عامين في كتابة رسائل علمية عن كتاب واحد: «هناك طريقة واحدة للقراءة، وهي أن تتصفح الكتب المعروضة بمكتبات ومتاجر بيع الكتب وتنتقي تلك التي تجذبك، ولا تقرأ سواها. وإذا شعرت وأنت تقرؤها أنها باتت مملة فلا تستمر في القراءة، وإذا صادفتك أجزاء مضجرة فتخطاها، ولا تقرأ أبدًا أي شيء لأنك تشعر بأن عليك أن تفعل، أو لأن هذا هو الاتجاه السائد أو الحركة السائدة. وتذكر أن الكتاب الذي يبدو لك مملًّا وأنت في العشرين أو الثلاثين، سيفتح أمامك الأبواب وأنت في الأربعين أو الخمسين، والعكس صحيح، فلا تقرأ كتابًا إلا عندما يحين الوقت المناسب لقراءته. وتذكر أيضًا أن كل هذه الكتب التي نشرت يقابلها عدد مماثل من الكتب لم تنشر، أو لم تكتب من الأساس. ويشهد هذا العصر نزوعًا إلى تبجيل الكلمة المكتوبة، فالتاريخ وحتى الأخلاق الاجتماعية تدرس من خلال القصص، والناس تأقلموا على أن يفكروا فقط من خلال ما هو مكتوب، ومع ذلك يغفل كل مؤلفي كتبنا التعليمية تقريبًا عن تقديم ما هو واضح وصريح أمامهم، فالتاريخ الحقيقي لأفريقيا، على سبيل المثال، لا يزال حبيسًا داخل صدور الحكائين السود والحكماء والمؤرخين الأفارقة ورجال الطب، إنه تاريخ شفوي لا يزال بمأمن من الرجل الأبيض وأساليبه الشرسة. فإذا أبقيت عقلك مفتوحًا في أي مكان، ستجد الحقيقة في الكلمات التي «لم» تكتب على صفحات الورق، ولذا عليك ألا تحصر نفسك بين الصفحات المطبوعة. والأهم من ذلك أنك يجب أن تعرف أن قضاءك عامًا أو اثنين في الكتابة عن كتاب واحد أو مؤلف واحد ليس معناه أن ما تعلمته كان خاطئًا. كان يجب أن تتعلم أن تجعل مشاعر المشاركة والانسجام هي دليلك في اختيار الكتب، كان يجب أن تتدرب على أن تتبع حدسك وشعورك الداخلي لتعرف ما الذي تحتاج إليه. هذا هو ما يجب أن تنميه، وليس كيف تستشهد بأقوال الآخرين.»

ولكن مع الأسف يكون الأوان قد فات دائمًا.

لم يبد أن حركات التمرد التي قام بها الطلاب حديثًا يمكن أن تغير الأمور، أو كأن شعورهم بالضجر من هذه المواد الجافة التي يدرسونها يمكن أن يكون قويًّا بما يكفي ويؤدي إلى استبدالها بأشياء أكثر حيوية وفائدة. ولكن على ما يبدو فإن

حركات التمرد تلك انتهت، وإنه لأمر محزن. أثناء الفترة التي تحركت فيها المياه الراكدة في الولايات المتحدة الأمريكية، كنت أتلقى خطابات تحكي عن أن الطلاب يرفضون المقررات الدراسية ويحضرون معهم إلى الفصول الكتب التي اختاروها بأنفسهم ووجدوها تتناسب أكثر مع حياتهم. سيطرت السمة الانفعالية على الفصول الدراسية، وفي بعض الأحيان كان المناخ السائد في هذه الفصول يتحول إلى مناخ عنيف وغاضب ومثير، مناخ يعج بالحياة. بالطبع كان ذلك يحدث فقط مع المدرسين الذين تعاطفوا مع الطلاب وكانوا مستعدين للوقوف معهم ضد السلطة ومستعدين لتحمل عواقب ذلك، فهناك مدرسون يعرفون أن الطريقة التي يتحتم أن يُدَرِّسوا بها طريقة رديئة ومملة، ولحسن الحظ هناك عدد لا بأس به منهم يمكنهم، إن حالفهم الحظ، أن يطيحوا بالأساليب الخاطئة حتى لو فقد الطلاب أنفسُهم حماسَهم.

ولكن على الجانب الآخر هناك بلد حدث فيها أنه ....

منذ ثلاثين أو أربعين عامًا وضع أحد النقاد قائمة بأسماء الكتاب والشعراء الذين يرى، شخصيًّا، أنهم أصحاب الإسهامات الأدبية القيمة منكرًا كل الكتاب والشعراء الآخرين. وسرعان ما أثارت هذه القائمة الكثير من الجدل، فكتب هذا الناقد مقالات مطولة دفاعًا عن قائمته. وصدرت العديد من الكتابات منها ما يؤيد ومنها ما يهاجم، وظهرت المدارس والطوائف بعضها يساند موقف هذا الناقد والبعض الآخر يشجبه. ولا يزال الجدال دائرًا بعد كل هذه السنوات ... ولم يظهر قط أن هذا الموقف كان مؤلمًا وسخيفًا لأي شخص. في هذه البلد صدرت كتب نقدية على درجة عالية من التعقيد والمعرفة تتناول الأعمال الأصلية، سواء أروايات كانت أو مسرحيات أو قصصًا، ولكن من خلال آراء الآخرين وليس مباشرة. ويشكل مؤلفو هذه الكتب جماعة من جماعات النقد المرموقة في جامعات العالم، ويعدون ظاهرة دولية، ويمثلون الصفوة بالوسائط الأدبية الأكاديمية. إنهم يقضون حياتهم في تأليف الكتابات النقدية، وفي نقد الكتابات النقدية التي يضعها الآخرون. وهم يرون أن هذا العمل على درجة من الأهمية تفوق العمل الأدبي الأصلي، فربما يزيد الوقت الذي يقضيه طلاب للأدب في قراءة نقد صُنف في نقد وُضع لنقد ثالث عن الوقت الذي يمضونه في قراءة الشعر والروايات والسير الذاتية والقصص. وهناك العديد من الشخصيات المحترمة تعتبر هذا الوضع طبيعيًّا، وليس محزنًا أو سخيفًا ....

قرأت حديثًا مقالة عن مسرحية «أنطونيو وكليوباترا» كتبها فتى يوشك أن يؤدي امتحانات المستوى المتقدم المؤهلة للالتحاق بالجامعة. انعكست ملامح الأصالة في هذه المقالة ونقلت انفعال الفتى وتأثره الشديد بالمسرحية، كانت تعج بالروح التي يهدف أي نظام حقيقي لتدريس الأدب إلى إيجادها. كان تعليق المدرس على المقالة بعد قراءته لها كالآتي: لا يمكنني أن أعطيك درجات على هذه المقالة، فهي خالية من أي استشهادات بأقوال من المراجع. ولم ينظر الكثير من المعلمين إلى هذا الموقف على أنه مؤلم وسخيف ....

في هذا البلد ربما يذهب الأشخاص الذين يعدون أنفسهم مثقفين — ومن ثَم يعتبرون أنهم أفضل من العامة الذين لا يطلعون على الكتب المختلفة وأرقى منهم — إلى أحد الكتاب ليهنئوه على نقد إيجابي كتب عن أحد مؤلفاته، ولكنهم لن يفكروا في أن يقرءوا الكتاب الذي كُتب عنه هذا النقد، وربما لا يفكرون أيضًا في أن هذا الكتاب الذي يهتمون به لاقى نجاحًا ....

في هذه البلد عندما يصدر كتاب عن موضوع معين، لنقل مثلًا عن الفلك، تتصل عشرات الكليات والجمعيات والبرامج التليفزيونية على الفور بالكاتب وتطلب منه أن يأتي ويتحدث عن الفلك، وآخر شيء ربما يخطر على بالهم هو أن يقرءوا الكتاب، وبالطبع يُنظر إلى سلوكهم هذا على أنه أمر طبيعي وليس سخيفًا على الإطلاق ....

في هذه البلد ربما يكتب ناقد شاب أو محرر شاب لم يقرأ أكثر من عمل واحد من بين أكثر من خمسة عشر عملًا لمؤلف تصل خبرته في عالم الكتابة إلى عشرين أو ثلاثين عامًا، عن هذا المؤلف بلهجة استعلائية، أو كأنه أصابه بالضجر، أو كأنه يفكر في الدرجات التي سيعطيها لمقالة ما معطيًا إياه توجيهات عما يجب أن يكتبه في المرة القادمة وكيف يقوم بذلك. لن يعتبر أي شخص أن ما حدث هو تصرف أحمق وغير منطقي، وبالطبع لن يفكر في هذا الأمر ذلك الشاب حديث السن، ذلك الناقد أو المحرر الذي تعلم سنوات عديدة أن يكتب باستعلاء وأن يقسِّم كل الكتّاب إلى درجات بدءًا من شكسبير ثم من يليه في المكانة.

في هذه البلد ربما يكتب أحد علماء الآثار عن قبيلة من قبائل أمريكا الجنوبية عندها علم متقدم في النباتات والطب وطرق العلاج النفسي: «إن المثير للدهشة هو أن هؤلاء

الأشخاص ليس لديهم لغة مكتوبة ...» دون أن يعتبر أي شخص أن ما قاله نوع من الحمق.

في هذه البلد عندما يحين موعد الذكرى المئوية لبيرسي تشيلي، وفي الأسبوع نفسه، تشهد صفحات ثلاث دوريات أدبية مختلفة مقالات نقدية عن تشيلي بقلم ثلاثة شبان تلقوا تعليمًا مماثلًا وتخرجوا من جامعاتنا التي لا تختلف أية منها عن الأخرى. تُدين هذه المقالات تشيلي بأسلوب متماثل ولا تذكر من محاسنه سوى أقل القليل وكأن ذكرها له من الأساس معروف يسديه الكتاب الثلاثة إليه، ولا يخطر على بال أحد أن شيئًا مثل هذا يعد مؤشرًا على وجود خلل جسيم بنظام النقد الأدبي لدينا.

وفي النهاية أود أن أقول إن هذه الرواية لا تزال تجربة مفيدة للغاية لمؤلفتها، فبعد عشر سنوات من صدورها يمكن أن يصلني ثلاثة خطابات في أسبوع واحد بشأنها من ثلاثة أشخاص على درجة عالية من الاطلاع والذكاء يعنيهم الأمر، تحملوا عناء الجلوس والكتابة إليَّ؛ أحد هذه الخطابات ربما يكون من جوهانسبيرج والآخر من سان فرانسيسكو والثالث من بودابيست، وأنا أجلس هنا في لندن أقرؤها كلها في وقت واحد، أو أطلع على واحد بعد الآخر وأنا أشعر كعادتي بالامتنان لمرسليها والسعادة لأن ما كتبت ربما يكون باعثًا على شيء ما، أو يكشف النقاب عن أمر من الأمور، أو حتى يثير الحنق؛ ربما يكون موضوع أحد الخطابات هو الحرب بين الرجل والمرأة، المعاملة اللاإنسانية التي تتلقاها المرأة من الرجل، والتي يتلقاها أيضًا الرجل من المرأة، وتظل مرسلة الخطاب — ولكنها لا تكون دائمًا امرأة — تتكلم في صفحات مطولة عن هذا الموضوع فقط، فهي لا ترى أي شيء آخر في الرواية.

وقد يبعث أحد أنصار سياسة العلم الأحمر السابقين مثلي بخطاب آخر يتحدث عن شئون السياسة ويكتب مرسله، رجلًا كان أو امرأة، صفحات عديدة عن السياسة دون أن يذكر أي فكرة أخرى تضمنتها الرواية.

هذان هما أكثر الموضوعات التي وصلتني في السنوات الأولى التي تلت صدور الرواية.

أما الخطاب الثالث الذي كان من النادر أن أتلقى مثله في البداية ولكن موضوعه الآن أصبح موجودًا بنفس القدر الذي توجد به الموضوعات الأخرى، هذا الخطاب الذي قد يكون من كتبه رجلًا أو امرأة يرى أن الرواية لا تعبر عن أي فكرة سوى فكرة المرض العقلي.

وكل هذه الخطابات تعبر عن رواية واحدة!

وبطبيعة الحال تستجلب هذه الحوادث مرة أخرى التساؤلات عن ذلك الشيء الذي يراه الناس عندما يقرءون رواية، والسبب الذي يجعل أحد الأشخاص يرى فكرة واحدة ولا يرى الأخرى على الإطلاق، وكم هو غريب أن يكون لدى المؤلف صورة واضحة إلى هذا الحد عن رواية يراها قراؤه على نحو مختلف تمامًا.

ومن طريقة التفكير هذه ينشأ استنتاج جديد وهو أن رغبة الكاتب في أن يرى قراؤه ما يراه هو وأن يفهموا بنية الرواية وهدفها كما يفهمهما هو إنما هي رغبة طفولية للغاية؛ ومثل هذه الرغبة تعني أن هناك نقطة أساسية لم يفهمها الكاتب وهي أن الرواية لا تكون حيّة وقويّة ومثمرة «إلا» حينما تظل خطتها وبنيتها وهدفها غير مفهومة، لأن اللحظة التي يضع فيها القارئ يده على خطة الرواية وبنيتها وهدفها هي نفسها اللحظة التي ستنتهي عندها الأشياء التي يمكن أن يستنبطها القارئ منها.

وعندما يصبح النمط المتبع في الرواية وبنيتها الداخلية واضحين أمام القارئ مثلما هما واضحان لمؤلفها، يحين الوقت لكي ينحي المؤلف هذه الرواية جانبًا لأنها حققت كل ما يمكن أن تحققه ويبدأ في عمل جديد.

دوريس ليسينج

يونيو/حزيران ١٩٧١

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى

حكاية امرأتين مع الحرية: الحكاية الأولى

آنا تقابل صديقتها مولي في صيف عام ١٩٥٧ بعد انقطاع

كانت المرأتان وحيدتين بالمسكن في لندن.

قالت آنا وصديقتها تهبط السلم بعد أن تحدثت في الهاتف: «أساس المشكلة هنا طبقًا لما أراه أن كل شيء ينهار.»

كانت مولي سيدة كثيرة التحدث في الهاتف، تساءلت لتوها عندما رن جرس الهاتف: «حسنًا، على مَن سنتحدث؟» وقالت بعدئذٍ: «إنه ريتشارد يخبرني أنه قادم. يبدو أن اليوم هو اليوم الوحيد المتاح لديه خلال الشهر القادم، أو هكذا أكد لي.»

قالت آنا: «حسنًا، لكنني لن أغادر.»

– لا، ابقِي معي كما أنتِ.

اعتبرت مولي أن مظهرها — وهي ترتدي بنطلونًا وسترة ثقيلة — رث، إلا أنها توصلت إلى أنه «سيضطر إلى أن يتقبلني كما أنا» وجلست بجوار النافذة واستطردت: «لم يذكر لماذا سيأتي؛ أظن أنها مصيبة أخرى حدثت مع ماريون.»

سألتها آنا بنبرة حذرة: «ألم يكتب لك؟»

– كتب لي هو وماريون، كلاهما أرسل لي خطابات «رقيقة» للغاية. إنه أمر غريب، أليس كذلك؟

كان سؤالها الأخير: «إنه أمر غريب، أليس كذلك؟» يعد من العبارات المميزة لحواراتهما الودودة التي تصفانها بأنها أحاديث للنميمة، وبعد أن سألت مولي هذا

السؤال انحرفت عن مجرى الحديث وقالت: «لا جدوى من الحديث الآن لأنه يقول إنه سيأتي حالًا.»

قالت آنا بلهجة مرحة يشوبها شيء من العنف: «غالبًا سيرحل عندما يراني هنا.» رمقتها مولي بنظرة خاطفة في حرص وقالت: «أوه، ولكن لماذا؟»

كان من المسلم به دائمًا أن آنا وريتشارد يكره أحدهما الآخر، وآنا معتادة أن ترحل عندما يكون متوقعًا أن يأتي ريتشارد. قالت مولي: «في الواقع أظن أنه معجب بك من صميم قلبه. ولكن الفكرة هي أنه مضطر إلى أن يظل معجبًا بي. إنه ليس إلا شخصًا ساذجًا اعتاد دائمًا أن يحب أو يكره شخصًا ما، لذا فإن كل الكراهية التي لن يعترف أنه يكنها لي صبها عليكِ.»

قالت آنا: «هذا من دواعي سروري أن أقدم لك هذه الخدمة، لكن أتعرفين، لقد اكتشفت حينما ابتعدتِ عني أن كلًّا منا يمكن أن تحل محل الأخرى لدى كثير من الأشخاص.»

قالت مولي بنزعة انتصار كعادتها دائمًا عندما تقول آنا شيئًا بديهيًّا ما دام الموضوع متعلقًا بها: «الآن فقط فهمت ذلك؟»

تتسم هذه العلاقة منذ بدايتها بالتوازن؛ فمولي أكثر خبرة بالحياة والناس بكل ما في الكلمة من معنى من آنا التي امتلكت موهبة فائقة.

احتفظت آنا بآرائها الخاصة، والآن ابتسمت واعترفت أنها بطيئة للغاية في فهم هذا الأمر.

قالت مولي: «إنه أمر غريب، فنحن شديدتا الاختلاف في كل شيء. أظن أن السبب هو أننا نعيش الحياة نفسها، حياة العزوف عن الزواج. هذا هو كل ما يستطيعون أن يروه.»

قالت آنا في سخرية مريرة: «سيدتان حرتان» وأضافت بنبرة غضب جديدة على مولي دفعت صديقتها لتسديد نظرة أخرى سريعة محدقة فيها: «لا يزالون يصنفوننا وفقًا لعلاقاتنا بالرجال، حتى أفضلهم يفعل ذلك.»

ردت مولي في لهجة أقرب إلى المرارة: «حسنًا، «إننا» كذلك، أليس هذا صحيحًا؟» واستدركت قولها في عجالة عندما رمقتها آنا بنظرة اندهاش: «حسنًا، من الصعب للغاية ألا نكون كذلك.» بعد ذلك توقف الحديث برهة، وفي تلك الأثناء لم تنظر السيدتان إحداهما للأخرى، ولكن جال بخاطريهما أن عامًا من البعد يعد فترة طويلة

ربما تتغير فيها كثير من الأمور، حتى وإن كانت علاقة الصداقة التي جمعتهما علاقة قديمة.

قالت مولي في النهاية وهي تتنهد: «حرتان. أتعرفين أنني كنت أفكر في أمرنا عندما ابتعدت وتوصلت إلى أننا نمثل نوعًا جديدًا تمامًا من النساء. ولا بد أن نكون كذلك، أليس هذا أمرًا مؤكدًا؟»

قالت آنا محاولةً التحدث بلكنة ألمانية: «لا جديد تحت الشمس.» وقالت مولي — التي تتقن التحدث بست لغات مختلفة — في تذمر: «لا جديد تحت الشمس» محاكيةً ببراعة صوت عجوز مخضرمة ألمانية اللهجة.

تجهمت آنا معترفة بالفشل؛ فشلت في أن تتعلم لغات أخرى وكانت منتبهة لنفسها للغاية حتى لا تتحول إلى شخصية أخرى، فمولي بدت للحظة كالأم شوجر، أو السيدة ماركس، المحللة النفسية التي التجأت إليها الاثنتان. انعكست التحفظات التي شعرت مولي وآنا أنها تغلف مقابلاتها معهما — وكانت لهما أحد المراسم الكئيبة والمحزنة — في الاسم المستعار الذي أطلقتاه عليها: «الأم شوجر» وبمرور الوقت لم يعد اسمًا يطلق على شخص فحسب، بل توصيفًا لرؤية متكاملة للحياة؛ رؤية تقليدية ومتأصلة ومتحفظة، مع أن ذلك يتناقض مع ارتباطه الشائن بكل شيء لاأخلاقي. هذا «التناقض» هو ما كان يخامر كلتيهما وهما يتناقشان معًا بخصوص مقابلاتهما معها، ومنذ قليل شعرت آنا على نحو متزايد أن هذا «التناقض» تحول إلى سبب من «الأسباب المحركة للأمر»، وكان ذلك أحد الأشياء التي تتطلع لمناقشتها مع صديقتها.

لكن مولي أسرعت في الرد كما كانت ترد غالبًا في الماضي على أقل نقد توجهه آنا إلى الأم شوجر: «ولكنها مع هذا كله كانت رائعة، ولم يكن الوضع السيئ الذي أمر به يسمح لي بانتقادها.»

قالت آنا: «اعتادت الأم شوجر أن تقول «إنك مثل إليكترا» أو «مثل أنتيجون» وتقف عند هذا دائمًا.»

قالت مولي في استهزاء مشددة على الساعات المضنية التي قضيتاها بحثًا عن الحقيقة: «حسنًا، لم تكن تتوقف تمامًا.»

قالت آنا بلهجة ملحة غير متوقعة جعلت مولي تنظر إليها للمرة الثالثة في فضول: «نعم، نعم، أوه، إنني لا أقول إنها لم تقدم لي معروفًا كبيرًا، فأنا على يقين من أنني لم أكن لأتعايش مع ما اضطررت للتعايش معه دونها. لكن ذلك لا يختلف

كثيرًا ... إنني أتذكر في وضوح شديد جلوسي هناك بعد الظهيرة في الغرفة الكبيرة، والمصابيح الخافتة المثبتة بالجدران وبوذا والصور والتماثيل.»

قالت مولي بنبرة انتقاد لاذع: «وماذا أيضًا؟»

قالت آنا مقاومة عزمها الواضح غير المنطوق بعدم مناقشة هذا الأمر: «كنت أفكر بخصوص هذا الشأن خلال الأشهر القليلة الماضية ... والآن أود أن أتحدث عنه معك، فعلى أي حال مررنا به معًا، مع الشخص نفسه ...».

– وماذا أيضًا؟

استطردت آنا: «إنني أتذكر بعد ظهيرة هذا اليوم، وكنت على علم بأنني لن أعود مرة أخرى. كان منتشرًا في أرجاء المكان هذا الفن البغيض.»

شهقت مولي في حدة وأسرعت تقول: «إنني لا أعرف ماذا تقصدين.» لم ترد آنا، فسألتها مولي بلهجة يطل منها الاتهام: «هل كتبتِ أي شيء أثناء غيابي؟»

– لا.

قالت مولي بصوت عالٍ: «سأظل أقول لك دائمًا إنني لن أسامحك إذا نبذتِ هذه الموهبة، وأنا أعني ما أقول. شكلت هذه الموهبة، ولن أستطيع أن أقف هكذا أشاهدك وأنت تضيعينها ... كانت لي محاولات عابثة في الرسم والرقص والتمثيل والتأليف. ولكنك موهوبة جدًّا يا آنا. فلم تفعلين ذلك؟ إنني لا أفهم.»

– كيف باستطاعتي إخبارك السبب وأنتِ غاضبة دومًا وتظنين أنني مخطئة؟

ترقرقت عينا مولي بالدموع التي أطل منها التوبيخ الموجع الموجه لصديقتها. وبصعوبة شديدة استطاعت أن تقول هذه الكلمات: «فكرت دومًا في قرارة نفسي أنني سأتزوج لذا لن يهم تضييعي لكل مواهبي الفطرية، وحتى وقت قريب كنت أحلم بإنجاب المزيد من الأطفال، أعلم أن هذا الأمر ينم عن الحمق إلا أنه واقع. والآن أنا في الأربعين من عمري وكبر تومي. ما أود أن أقوله هو إنك لم تكتبي، لأنك ببساطة تفكرين في الزواج ...».

– لكن كلتينا تريد الزواج.

قالتها آنا محاولة أن تغلف صوتها، الذي ظل التحفظ يغلب عليه أثناء الحوار، بنبرة مازحة. وأدركت أنها لن تستطيع مناقشة موضوعات معينة مع مولي، وآلمها ذلك كثيرًا.

ابتسمت مولي ابتسامة جافة ونظرت إلى صديقتها في حدة مريرة وقالت: «حسنًا، لكنكِ ستندمين.»

قالت آنا ضاحكة من المفاجأة: «أندم. اسمعي يا مولي، لم لا تصدقين أبدًا أن الآخرين يعانون ما تعانينه؟»

– كنت محظوظة بما يكفي لأن لديك موهبة واحدة وليس أربع مواهب.

– ربما لم تَقِلّ الضغوط التي مورست عليّ بسبب موهبتي الوحيدة عن تلك التي تعرضت لها بسبب مواهبك الأربع.

– لن أستطيع التحدث معك وأنت بهذه الحالة المزاجية. هل أعد لك كوبًا من الشاي حتى يأتي ريتشارد؟

قالت آنا: «إنني أفضل تناول البيرة أو شيئًا من هذا القبيل»، وأضافت بلهجة استفزازية: «كنت أفكر أنني ربما أبدأ في الاعتياد على الشراب.»

قالت مولي بنبرة الوعظ والإرشاد التي استحضرتها آنا: «لا داعي للمزاح يا آنا، لقد رأيت بعينك ماذا يفعل ذلك في الناس؛ فلتنظري إلى ماريون. ترى هل كانت تشرب أثناء غيابي؟»

– باستطاعتي إخبارك. إنها ... أوه، إنها جاءت لزيارتي مرات عدة.

– جاءت لزيارتك؟!

– هذا هو ما كنت أمهد به لكِ عندما قلت إن كلًّا منا يمكن أن تحل محل الأخرى لدى كثير من الأشخاص.

أظهرت مولي نزعة أنانية، وقالت بلهجة بدا فيها الاستياء الذي كانت آنا تعرف أنه سينتابها: «أظن أنكِ ستقولين إن ريتشارد أتى لزيارتك أيضًا؟» أومأت آنا وقالت مولي بحيوية: «سأحضر لنا كأسين من البيرة.» عادت من المطبخ بكأسين طويلتين عليهما قطرات ماء، وقالت: «حسنًا، من الأفضل أن تخبريني بكل ما في الأمر قبل أن يأتي ريتشارد، أليس كذلك؟»

ريتشارد هو زوج مولي أو بالأحرى كان زوجها، ومولي ثمرة ما قالت عنه «إحدى زيجات العشرينيات». تألق والدها ووالدتها — وإن كان ذلك لوقت قصير — في أوساط المفكرين والفنانين غير التقليديين الذين ترددوا على القاعات الرئيسية للمؤلفين هاكسلي ولورنس وجويس ... إلخ. كانت طفولتها مفجعة إذ استمرت هذه الزيجة بضعة أشهر فقط. تزوجت مولي وهي في الثامنة عشرة من عمرها من ابن صديق والدها. عرفت الآن أنها تزوجت فقط لحاجتها إلى الشعور بالأمان وبأنها جديرة بالاحترام. وكان تومي هو ثمرة هذه الزيجة. كان ريتشارد وهو في العشرين من عمره في طريقه فعليًّا إلى أن يصبح رجل أعمال يقف على أرض صلبة ومنذ تلك

اللحظة عمد إلى إثبات نفسه. لم يستطع هو ومولي أن يتحملا أوجه الخلاف بينهما أكثر من سنة. وتزوج بعد ذلك بماريون وأنجبا ثلاثة صبية. ظل تومي مقيمًا مع مولي، وعادت علاقة الصداقة التي كانت تجمع بين ريتشارد ومولي مرة أخرى فور انتهاء إجراءات الطلاق، وفيما بعد أصبحت ماريون صديقتها، وهذا هو الموقف الذي كانت مولي تشير إليه عادة بقولها: «إنه أمر غريب جدًّا، أليس كذلك؟»

قالت آنا: «حضر ريتشارد لزيارتي ليتحدث معي بخصوص تومي.»

– ماذا تقولين؟ لماذا؟

– أوه، يا للحمق! سألني هل من الجيد لتومي أن يقضي وقتًا طويلًا في التأمل، قلت إنني أظن أن التأمل جيد لكل الناس، إذا كان يعني بذلك التفكير، وإن تومي شخص بالغ في العشرين ولا يحق لنا التدخل في أموره بأي حال من الأحوال.

قالت مولي: «حسنًا، هذا ليس في مصلحته.»

– سألني عن رأيي هل من الجيد لتومي الذهاب في رحلة إلى ألمانيا، رحلة عمل معه. وأخبرته أن يطرح هذا السؤال على تومي وليس عليّ أنا، وبالطبع رفض تومي.

– بالطبع، ولكنني آسفة على عدم ذهاب تومي.

– لكنّ السبب الحقيقي الذي جاء به — على ما أظن — كان متعلقًا بماريون. ولكن ماريون جاءت لزيارتي وعرضت شكواها قبله، ولذا لم أناقش موضوع ماريون قط، وأظن أنه آتٍ ليتكلم معكِ بخصوص ماريون.

كانت مولي تراقب آنا عن كثب وهي تتحدث وقالت لها: «كم مرة حضر ريتشارد لزيارتك؟»

– قرابة خمس أو ست مرات.

بعد فترة من الصمت أطلقت مولي سراح غضبها بقولها: «يا له من أمر شديد الغرابة، يبدو أنه يتوقع مني أن أسيطر على ماريون. ولماذا أنا؟ أو أنت؟ حسنًا، ربما من الأفضل أن تذهبي على أي حال. سيكون أمرًا صعبًا فالكثير من التعقيدات حدثت وأنا بعيدة.»

قالت آنا بنبرة حاسمة: «لا يا مولي، إنني لم أطلب من ريتشارد أن يزورني، ولم أطلب من ماريون أن تأتي لزيارتي. وعلى أي حال ليس خطأك أو خطئي أن الناس يرون أننا نقوم بالدور نفسه. قلت ما كنت ستقولينه، على الأقل أظن ذلك.»

كان هناك مسحة من التوسل الهزلي — بل حتى الطفولي — تغلف كلمات آنا، وكان ذلك متعمدًا. ابتسمت مولي — الأخت الكبرى — وقالت: «حسنًا جدًّا» واستمرت

في ملاحظة آنا بدقة، كانت آنا حريصة على أن تتظاهر أنها لا تدرك ذلك. إنها لم ترد إخبار مولي بما حدث بينها وبين ريتشارد الآن؛ ليس قبل أن تتمكن من إخبارها بالقصة الكاملة التي وقعت أحداثها في العام السابق الذي كان مأساويًّا.

– هل تشرب ماريون بشراهة؟

– نعم، أظنها كذلك.

– وهل أخبرتك بذلك؟

– نعم، تفصيلًا، والغريب في الأمر — وأقسم بذلك — أنها تحدثت كما لو كانت تتحدث إليكِ، حتى زلات اللسان بأن تناديني مولي وهكذا.

قالت مولي: «حسنًا، لا أعرف، هل كان يمكن أن يفكر أحد في ذلك؟ فأنا وأنت على طرفي نقيض.»

قالت آنا بنبرة جافة: «ربما لا نكون مختلفتين هذا الاختلاف.» إلا أن مولي ضحكت مستنكرة.

كانت مولي امرأة طويلة إلى حد ما وعريضة، إلا أنها بدت نحيلة وأكثر اشتباهًا بالرجال. ورجع ذلك إلى الطريقة التي صففت بها شعرها الخشن ذا الخصل الصفراء الذي قص كما يقص شعر الرجال. هذا إلى جانب ملابسها التي كانت لديها موهبة فطرية كبيرة في التعامل معها. ويسعدها كل الهيئات التي تبدو عليها؛ فتاة مستهترة عند ارتداء البناطيل والسترات الخفيفة، ثم امرأة مغوية بتزيين عينيها الخضراوين الواسعتين وإبراز عظمتي الوجنتين وارتداء ما يبرز أفضل معالم ثدييها.

كانت هذه هي إحدى الألعاب الشخصية التي لعبتها مع الحياة، والتي كانت آنا تحسدها عليها، لكن في لحظات توبيخ الذات كانت تخبر آنا أنها تشعر بالخزي من نفسها لتلذذها بالأدوار المختلفة التي تؤديها: «يبدو الأمر كما لو أنني أكون مختلفة فعليًّا، ألا ترين؟ بل إنني أشعر أنني إنسانة مختلفة. وهناك نوع من الحقد يحرك هذا الأمر داخلي. أتذكرين ذلك الرجل الذي أخبرتك عنه الأسبوع الماضي، رآني لأول مرة وأنا مرتدية بنطلوني الواسع القديم وحلة صوفية قديمة بالمثل وواسعة جدًّا، وعندما ذهبت إلى المطعم كنت عن حق المرأة الجذابة المغوية، ولم يعرف كيف يحصل عليّ، ولم يستطع قول كلمة واحدة طوال الليل، وكنت متلذذة بهذا الأمر. ما رأيك يا آنا؟»

قالت آنا وهي تضحك: «ولكنك استمتعت بذلك.»

على النقيض من مولي كانت آنا امرأة صغيرة الحجم، نحيلة، سمراء، ذات شخصية هشة وعينين واسعتين سوداوين ويقظتين دائمًا وشعر منفوش. وكانت على

وجه العموم تشعر بالرضا عن نفسها إلا أنها كانت دائمًا كما هي دون تغيير. وهي تحسد مولي على قدرتها على أن تخطط لتغيير حالتها المزاجية. ترتدي آنا ملابس مهندمة ورقيقة تميل إلى الرسمية الشديدة أو الغرابة النسبية، واعتمدت على يديها البيضاويين الرقيقتين ووجهها الأبيض الصغير المحدد الملامح لتترك انطباعًا معينًا لدى الناس، ولكنها خجولة وغير قادرة على التصرف بثقة ولديها قناعة بأنه من السهل ألا يلحظها الآخرون.

عندما تخرج السيدتان معًا تعمد آنا إلى تنحية نفسها وإبراز مولي كشخصية مثيرة. وعندما يكونان بمفردهما يكون لديها ميل إلى أن تكون في مركز القيادة، ولكنّ هذا لم يكن يحدث على الإطلاق في بداية صداقتهما؛ إذ إن مولي — الفظة، الصريحة، التي تعوزها اللباقة — هي من سيطرت على آنا بكل وضوح. ولكن رويدًا رويدًا تعلمت آنا — والفضل يرجع كثيرًا إلى جلسات «الأم شوجر» — أن تدافع عن نفسها. ولكن حتى هذه اللحظة تمر عليها لحظات تعزف فيها عن مواجهة مولي عندما يجدر بها أن تفعل. اعترفت لنفسها بأنها جبانة، فهي تستسلم دائمًا بدلًا من أن تدخل في مشاجرات مع مولي، فالشجار يمكن أن يصيب آنا باكتئاب لأيام، في حين تستمد مولي الطاقة من النزاعات؛ فهي يمكن أن تنفجر في البكاء الشديد وتتلفظ بكلمات لا تُغتفر وتنسى كل ما حدث بعد نصف يوم، أما آنا فتبقى قابعة في شقتها بلا حراك تحاول أن تتعافى من آثار ما حدث.

وحقيقة أنهما كانتا «لا تشعران بالأمان» وأنهما «بلا جذور» — وتعود هذه الكلمات إلى عهد «الأم شوجر» — هي حقيقة اعترفت بها كلتاهما بصراحة، إلا أن آنا كانت تتعلم منذ عهد قريب استخدام هذه الكلمات على نحو مختلف، ليس باعتبارها أشياء يجب أن تعتذر عنها بل كأعلام أو شعارات لموقف أصبح يمثل فلسفة مختلفة. كانت تستمتع عندما تتخيل أنها تقول لمولي: إننا اتخذنا الموقف الخطأ للموضوع بأكمله، وهذا خطأ «الأم شوجر»؛ ماذا يكون ذلك الأمان وهذا التوازن اللذان يفترض أن يكون فيهما خيرًا؟ وما عيب العيش على نحو عاطفي مشبعين فقط رغباتنا الأساسية في عالم يتغير بمثل هذه السرعة؟

جالت بخاطرها هذه الفكرة وهي جالسة تتحدث مع مولي مثلما فعلتا من قبل لمرات عديدة: لماذا تكون لديّ دائمًا هذه الحاجة الملحة لجعل الآخرين ينظرون إلى الأشياء بالطريقة التي أنظر بها إليها؟ إنه أمر طفولي، ولماذا ينبغي لهم فعل ذلك؟ إن هذا الأمر يعني أن يكون الشعور الذي يخامرني مقتصرًا عليّ أنا وحدي.

كانت الغرفة التي جلستا فيها في الدور الأول وتطل على شارع جانبي ضيق قد وُضعت آنية ورد فخارية على نوافذها الخشبية الملونة، وكانت أرصفة الشارع مزينة بثلاث قطط تنعم بدفء أشعة الشمس وكلب وعربة اللبن التي أتت متأخرة لأن اليوم هو الأحد. ارتدى بائع اللبن قميصًا أبيض اللون، وشمر عن ساعديه، وابنه البالغ ستة عشر عامًا ينقل الزجاجات البيضاء اللامعة من سلة مصنوعة من السلك إلى عتبات المنازل، وعندما وصل إلى أسفل نافذتهما صعد الرجل ببصره لأعلى ثم أومأ. قالت مولي: «استقبلته بالأمس لاحتساء القهوة، كان التشفي يفيض منه، إذ حصل ابنه على منحة تعليمية وأراد السيد جيتس أن يعرفني بذلك، فرددت عليه بما كان يريد أن يقوله قبل أن أسمعه منه: «يتمتع ابني بكل هذه المميزات وكل هذا التعليم ولكن انظر إليه، إنه لا يعرف ماذا يفعل. وها هو ابنك لا يملك مليمًا يُنفق عليه وقد حصل على منحة.» فقال لي: «هذا صحيح، تلك هي الحياة.» ولم أستطع أن أحتمل الأمر فقلت له: «إن ولدك يا سيد جيتس في طريقه إلى الانضمام إلى الطبقة المتوسطة الآن، جنبًا إلى جنب معنا، وأنت لن تتصرف بالأسلوب نفسه. أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟» رد: «هكذا الدنيا دائمًا.» قلت له: «إن الدنيا ليست كذلك على الإطلاق، لكنّها دنيا هذا البلد الملعون الذي يسيطر عليه جنون الطبقات الاجتماعية.» إن السيد جيتس أحد أعضاء حزب المحافظين الآتين من الطبقة العاملة. قال الرجل: «هكذا الحياة، يا آنسة جاكوبس، تقولين إن ابنك لا يستطيع أن يتلمس طريقه؟ وهذا شيء محزن.» بعد ذلك مضى هو في جولته لبيع اللبن، وصعدت أنا إلى الدور العلوي حيث كان تومي جالسًا على سريره، جالسًا فقط. من المحتمل أنه جالس الآن هكذا إن كان في الغرفة، وولد جيتس، وهو شاب مثل تومي، يخرج ساعيًا في طلب ما يريد. ولكن كل ما يفعله تومي — منذ أن عدت من ثلاثة أيام — هو أن يجلس على سريره ويفكر.» – أوه، لا تقلقي هكذا يا مولي، سيكون على ما يُرام. كانت السيدتان منحنيتين تنظران من الشباك إلى السيد جيتس وولده. وكان الرجل قصير القامة، يتمتع بالنشاط، صارمًا وقليل الحجم، وكان ابنه طويل القامة، صارمًا ووسيمًا. راقبت السيدتان كيف ينقل الصبي — في عودته بالوعاء الفارغ — وعاءً ممتلئًا من مؤخرة عربة اللبن، متلقيًا تعليمات والده بابتسامة وإيماءة برأسه. كان «بينهما» تفاهم تام، ولذا تبادلت السيدتان، اللتان ربَّت كلتاهما طفلها من دون رجل، ابتسامة تطل منها مشاعر الحقد.

قالت آنا: «أصل الحكاية هنا أن كلتينا لم تكن مستعدة للزواج لمنح طفلها أبًا، ولذا علينا الآن أن نتحمل العواقب، إن كانت هناك أي عواقب. ولماذا توجد عواقب؟»

قالت مولي بلهجة لاذعة: «إن الأمر على ما يُرام من وجهة نظرك، إنك لا تقلقين أبدًا على أي شيء، بل تجعلين الأمور تتخذ مجراها.»

استعدت آنا للمواجهة، كادت تصمت ولا ترد، ثم بصعوبة شديدة قالت: «إنني لا أوافقك الرأي، إننا نحاول تحقيق الاستفادة على أي حال، فدائمًا رفضنا العيش وفقًا للكتب والقواعد، ولكن لماذا بعد ذلك نبدأ في القلق لأن العالم لا يتعامل معنا وفقًا للقواعد؟ هذا هو كل ما في الأمر.»

قالت مولي في عدائية: «أرأيتِ؟ لكنني لست شخصية نظرية. إنك تفعلين ذلك على الدوام؛ تبدئين في اختلاق النظريات عندما تُواجهين بشيء. إنني قلقة بشأن تومي فقط.»

لم تستطع آنا أن ترد هذه المرة، إذ كانت نبرة صوت صديقتها غاية في القوة. عادت إلى تفقد الشارع، كان السيد جيتس وابنه ينعطفان عند ناصيته ويتواريان بعيدًا عن الأنظار وهما يسحبان عربة اللبن الحمراء خلفهما، في الجانب الآخر من الشارع أثار اهتمامهما شيء آخر؛ بائع متجول يدفع عربة بيده صائحًا: «فراولة طازجة من خير الريف ... فراولة طازجة، فراولة طازجة من خير الريف ...».

بعثت مولي لآنا بنظرة سريعة وأومأت الثانية مبتسمة ابتسامة عريضة كفتاة صغيرة. (كانت آنا تعي أن ابتسامة الفتاة الصغيرة مقصودة لتخفيف انتقاد مولي لها، وأزعجها ذلك.) هرعت مولي خارجة من الغرفة، والتقطت حقيبة يدها من فوق أحد الكراسي، بعد أن قالت: «سأحضر بعضًا لريتشارد أيضًا.»

استمرت آنا في الانحناء والنظر من النافذة في مساحة دافئة من أشعة الشمس وهي تراقب مولي التي اندمجت بالفعل في محادثة نابضة بالحياة مع بائع الفراولة. كانت مولي تضحك وتلوح بيدها وهي تتحدث وهز الرجل رأسه غير موافق وهو يصب الفاكهة الحمراء الثقيلة على كفة ميزانه.

سمعتها آنا تقول: «حسنًا، أنت لا تدفع أي تكاليف إضافية مثل المتاجر، فلماذا إذن ندفع ما يمكن أن ندفعه في المتاجر؟»

– إن المتاجر لا يُباع فيها فراولة طازجة مثل هذه يا سيدتي.

قالت مولي وهي تختفي ومعها طبق الفاكهة الحمراء الأبيض: «اذهب. محتالون، لستم إلا محتالين!»

رفع بائع الفراولة وجهه المكفهر نحو النافذة التي عادت مولي إليها، وهو شابّ نحيل ذو وجه شاحب، يبدو عليه الفقر، ولما رأى السيدتين معًا قال وهو يتحسس ميزانه المتلألئ: «التكاليف الإضافية، ماذا تعرفان عنها؟»

قالت مولي وقد ملأت هذه المواجهة وجهها بالحيوية: «إذن فلتصعد وتحتس القهوة وتخبرنا.»

وعندها أنزل وجهه عن النافذة وقال وهو ينظر إلى أرضية الشارع: «على بعض الناس أن يعملوا حتى لو لم يضطر الآخرون للعمل.»

قالت مولي: «هيا، لا تكن شخصًا كئيبًا هكذا. اصعد وتناول بعض الفراولة التي تبيعها، على حسابي.»

تحير الرجل في أمرها، فوقف وهو عابس الوجه متشكك، وشعره الأشقر الدهني الطويل أكثر من اللازم منسدل على وجهه، قال في النهاية وهو يرحل تاركًا مسرح الأحداث، إن جاز التعبير: «لست من هذا النوع إن كنتِ منه.»

نظرت مولي إلى آنا وهي تترك النافذة وتضحك ضحكة يطل منها رفضها أن تعترف بأنها مخطئة: «أتمنى لك يومًا سيئًا.»

ولكنّ آنا أطلت من النافذة وأكدت على وجهة نظرها فيما حدث بالنظر إلى كتفي الرجل العنيد المستاء وقالت بصوت خفيض: «جرحتِ مشاعره.»

هزت مولي كتفيها في غير اكتراث وقالت: «اللعنة، ها قد عدت إلى إنجلترا مرة أخرى حيث الجميع يحجم عن الحديث ويشعر بالاستياء، إنني أرغب في الهروب، في الصياح والصراخ، كلما وطئت قدمي هذه التربة الجليدية. أشعر أنني سجينة في اللحظة التي أتنفس فيها هواءنا المقدس.»

قالت آنا: «لا فرق، إنه يظن أنك كنت تسخرين منه.»

يخرج مشترٍ آخر من المنزل المقابل؛ إنها سيدة تنعم بالراحة المعتادة في يوم من أيام الآحاد، ترتدي بنطلونًا واسعًا وقميصًا فضفاضًا ووشاحًا أصفر اللون تغطي به رأسها. قدم لها بائع الفراولة الفاكهة وهو يراوغها، وقبل أن يرفع يدي العربة ليدفعها إلى الأمام رفع نظره لأعلى مرة أخرى تجاه النافذة ولم ير سوى آنا وذقنها المستدق الصغير مختفٍ في ساعدها، وعيناها السوداوان متحولتان إليه في اهتمام وهي تبتسم، قال بلهجة مازحة امتزج بها الاستياء: «تكاليف إضافية .... تقول تكاليف إضافية.» وبدا في صوته التذمر الطفيف، وقد سامحهما.

بدأ يبتعد عن المنزل صائحًا خلف أكوام الفاكهة الحمراء الباهتة اللامعة في الشمس: «فراولة طازجة من قطف الصباح!» ثم خبا صوته في ضجيج المرور الصادر من الشارع الكبير الذي يبعد عن البيت مائتي ياردة.

استدارت آنا ووجدت مولي تضع طبقي الفاكهة الممتلئين بالكريمة على حافة النافذة، قالت مولي: «قررت ألا أضيع وقتًا أطول في إعداد شيء لريتشارد، إنه لا يستمتع مطلقًا بأي شيء. أتريدين المزيد من البيرة؟»

قالت آنا في نهم: «نعم، مع الفراولة والخمر.» ثم حركت الملعقة في طبق الفاكهة وشعرت بحبات الفراولة الناعمة أسفل الملعقة وبالكريمة الزلقة أسفل طبقة حبيبات السكر. وملأت مولي الكأسين سريعًا بالخمر ووضعتهما على الحافة البيضاء، وتبلورت أشعة الشمس بجانب كل كأس على الحافة البيضاء في صورة معينات مهتزة من اللون القرمزي والضوء الأصفر، جلست السيدتان في ضوء الشمس تتنهدان بسعادة وتمدان رجليهما في خيط الدفء الرفيع، وتنظران إلى ألوان الفاكهة في الطبقين اللامعين وإلى النبيذ الأحمر.

ولكن رن جرس الباب، فاتخذت السيدتان تلقائيًّا وضعين أقل استرخاء، وانحنت مولي مطلة من النافذة مرة أخرى وصاحت: «احذر من أن يصطدم المفتاح برأسك!» ورمت مفتاح الباب لأسفل ملفوفًا في وشاح قديم.

راقبتا ريتشارد وهو ينحني لأسفل من أجل التقاط المفتاح من الأرض دون أن يلقي نظرة سريعة لأعلى مع أنه يعرف بالتأكيد أن مولي على الأقل موجودة. قالت: «إنه يكره أن أفعل ذلك، أليس ذلك غريبًا؟ وبعد هذه السنوات كلها؟ وطريقته في التعبير عن ذلك هو التظاهر بعدم حدوثه.»

دخل ريتشارد الغرفة وبدا أصغر من كونه رجلًا في منتصف العمر، وقد اكتسب سمرة رائعة بعد إجازة قضاها في أوائل الصيف بإيطاليا. كان يرتدي قميصًا رياضيًّا ضيقًا أصفر اللون، وبنطلونًا جديدًا فاتح اللون، وكل يوم من أيام الآحاد في العام، سواء في الشتاء أو الصيف، يرتدي ريتشارد بورتمين ملابس تلائم وجوده في الهواء الطلق. إن ريتشارد عضو بارز في أكثر من نادي جولف وتنس، لكنه نادرًا ما يلعب إلا إذا كان للعب أسباب تخدم أعماله وتجارته. يملك فيلا في الريف منذ سنوات، إلا أنه أرسل عائلته إليها بمفردهم ولا يذهب إلى هناك إلا إذا كان من المستحسن استقبال أصدقاء العمل والترويح عنهم في عطلات نهاية الأسبوع، ولديه ميل طبيعي للعيش في الحضر، إذ يقضي عطلة الأسبوع في الانتقال من نادٍ لآخر ومن حانة

لأخرى ومن بار لآخر. وهو قصير القامة قليلًا، أسمر البشرة، يميل جسده المكتنز إلى السمنة، ووجهه المستدير — الذي يصبح جذابًا حين يبتسم — عنيد حتى إن التجهم ربما يرتسم على ملامحه عندما لا يكون مبتسمًا. وبدا على هيئته القوية بصفة عامة — حيث عنقه الممتد إلى الأمام وعيناه اللتان لا ترمشان — التصميم الذي يطل منه التعنت. أعطى لمولي المفتاح الملفوف على نحو غير محكم داخل وشاحها القرمزي في ضجر. أخذت المفتاح وبدأت تحركه فوق أظافرها البيضاء الصلبة وهي تقول: «هل أنت في طريقك للاستمتاع بيوم صحي في الريف يا ريتشارد؟»

استعد ريتشارد لهذه الملحوظة الساخرة، فأرسل ابتسامة صارمة، ثم حدق في أشعة الشمس المنعكسة على النافذة البيضاء، وعندما رأى آنا عبس على نحو لاإرادي وأومأ برأسه في حدة، وأسرع إلى أحد المقاعد في الجانب الآخر من الغرفة مبتعدًا عن كلتيهما وجلس عليها ثم قال: «لم أكن أعلم أن لديك ضيفة يا مولي.»

قالت مولي: «آنا ليست ضيفة.»

تعمدت مولي النظر إلى عيني ريتشارد اللتين تنظران إليهما وهما جالستان في استرخاء في أشعة الشمس، واتجهت رأسها نحوه في حركة متسائلة في كرم عما يريده وقدمت له الاختيارات: «أتريد نبيذًا يا ريتشارد؟ أم بيرة؟ أم قهوة؟ أم تريد فنجانًا من الشاي؟»

– أريد إسكوتش، إن كان موجودًا.

قالت مولي: «إنه بجانبك.»

لكنه لم يتحرك من مكانه، بعد أن فعل ما شعر أنه تصرف رجولي. قال: «جئت لأناقش موضوع تومي.» ونظر نظرةً خاطفة إلى آنا التي كانت تلعق آخر حبة فراولة في طبقها.

– لكنك ناقشت كل هذا بالفعل مع آنا، هكذا علمت، ولذا الآن يمكن لثلاثتنا مناقشة الأمر.

– إذن فإن آنا أخبرتك بأن ....

قالت مولي: «لم تخبرني شيئًا، تلك هي المرة الأولى التي سنحت لنا الفرصة لترى إحدانا الأخرى.»

– إذن فأنا أقتحم أول لقاء شخصي ودود لكما.

هكذا قال ريتشارد باذلًا مجهودًا حقيقيًّا لكي يتحدث بمثل هذه السماحة التي يشوبها المرح، ومع ذلك بدا مغرورًا. وبدا الانزعاج على السيدتين تجاه ذلك.

نهض ريتشارد على نحو مفاجئ.

وتساءلت مولي: «هل ستغادر مبكرًا هكذا؟»

– سأنادي على تومي.

وعندما قاطعته مولي بقولها: «لا تصرخ فيه يا ريتشارد، إنه لم يعد صبيًّا صغيرًا، إلى جانب أنني أظن أنه غير موجود بالداخل»، أخذ نفسًا عميقًا وصاح صيحة حاسمة توقعتها السيدتان: «بالطبع إنه بالداخل.»

– كيف عرفت؟

– لأنه ينظر من النافذة بالأعلى. إنني مندهش من أنك لا تعرفين حتى إن كان ابنك هنا أم لا.

– لماذا؟ إنني لا أراقبه.

– حسنًا، ولكن إلى أين أوصلك هذا السلوك؟

واجه أحدهما الآخر الآن على نحو جاد وأطل من وجهيهما العداء الصريح، وردًّا على سؤاله هذا قالت مولي: «إنني لن أدخل معك في جدال حول الطريقة التي كان من المفترض أن يتربى بها. دعنا ننتظر إلى أن يكبر أطفالك الثلاثة قبل أن نبدأ في عد الأهداف التي سجلها كل منا في مرمى الآخر.»

– لم آت لأناقش مشكلة أبنائي الثلاثة.

– ولم لا؟ ناقشنا مشكلاتهم لمئات المرات من قبل، وأظن أنك ناقشت الأمر نفسه مع آنا أيضًا.

توقف الحديث برهة ليتحكم الاثنان في غضبهما فقد فوجئا وتنبها إلى أنه غضب عارم بالفعل. وهذه حكاية هذين الشخصين: تقابلا عام ١٩٣٥ وكانت مولي منخرطة انخراطًا شديدًا في قضية أسبانيا الجمهورية، وكذلك ريتشارد. (ولكن، على حد قول مولي، في المناسبات التي يتحدث فيها عن هذا الأمر يعتبره زلة مؤسفة من جانبه في الوسط السياسي الأجنبي، ومن لم يكن كذلك في تلك الأيام.) قطعت عائلة بورتمين — وهي عائلة ثرية ظنت على نحو مفاجئ أن هذا دليل على اتجاهات شيوعية دائمة — مصاريف المعيشة التي كانت تزوده بها. (علقت مولي على هذا الأمر: سُر ريتشارد بطبيعة الحال عندما قرر أهله أن يحرموه من الميراث! فهذه هي أول مرة يأخذون أفعاله على محمل الجد وشجعه ذلك على أن يستخرج على الفور بطاقة حزبية.) ظل ريتشارد الذي لا يعتبر موهوبًا في أي شيء إلا في صنع المال، معتمدًا على مولي عامين، في حين كان يعد نفسه ليكون كاتبًا. (قالت مولي

بعد بضعة أعوام بالطبع: هل يمكنك أن تتخيلي شيئًا عاديًّا أكثر من ذلك؟ كان على ريتشارد بالطبع أن يكون عاديًّا في كل شيء. الجميع كانوا سيصبحون كتابًا عظماء، كل الأشخاص! هل تعلمين ما الأدوات الأساسية التي لا تخلو منها الخزانة الشيوعية، أتعرفين هذه الحقيقة الفظيعة؟ تكمن هذه الحقيقة في أن كل فرد من مناضلي الحزب القدامى، كل هؤلاء الأشخاص الذين لم يُتَخَيَّل أنهم لا يفكرون في أي شيء آخر لسنوات سوى الحزب، الجميع كان يحتفظ في أحد أدراجه بهذه المخطوطة القديمة أو بمجموعة من القصائد. كل الأشخاص كانوا سيصبحون الكاتب جوركي أو الشاعر ماياكوفسكي لعصرنا، أليس ذلك مخيفًا؟ أليس مثيرًا للشفقة؟ كل واحد منهم لو فعل لأصبح فنانًا فاشلًا. إنني على يقين أن ذلك ينم عن شيء، ولكن كيف لنا أن نعرف «ماهية» هذا الشيء.) ظلت مولي متكفلة بنفقات ريتشارد لشهر بعد أن تركته، بدافع من الازدراء. وتزامن نفوره من سياسات الجناح الأيسر الذي كان مفاجئًا مع قراره أن مولي شخصية غير أخلاقية ومستهترة وبوهيمية، ومن حسن حظها مع ذلك أنه أقام علاقة غرامية مع فتاة مثلها، عرفت في الأوساط العامة — رغم قصرها — فمنعه ذلك من أن يطلقها ويحصل على حضانة تومي، وهو الأمر الذي هدد بفعله. بعد ذلك عاد ريتشارد إلى كنف عائلة بورتمين وقَبِلَ ما أشارت إليه مولي ببعض الازدراء على أنه «وظيفة في المدينة». ليس لدى مولي، حتى هذه اللحظة، فكرة عن مدى القوة التي أصبح يمتلكها ريتشارد بعد أن قرر أن يرث هذا المنصب. بعد ذلك تزوج ريتشارد بماريون وهي فتاة شابة رومانسية وودودة وهادئة، تنحدر من عائلة شهيرة إلى حد ما وأنجبا ثلاثة أبناء.

في الوقت نفسه عملت مولي، التي كانت تمتلك مواهب عدة، بالرقص لبعض الوقت، إلا أنها لا تتمتع فعليًّا بالهيئة التي يجب أن تكون عليها راقصة الباليه، وغنت ورقصت في مسرحية استعراضية، ثم قررت أنه نشاط عابث جدًّا. إلى جانب ذلك، تلقت دروسًا في الرسم، لكنها توقفت عنها عندما بدأت الحرب وعملت صحفية، ثم أقلعت عن العمل في الصحافة لتعمل في إحدى المشاريع الثقافية الخارجية الخاصة بالحزب الشيوعي، وتركته للسبب نفسه الذي دفع كل الأشخاص الذين يشبهونها لتركه، وهو أنها لم تتحمل الملل المميت لهذا المشروع. وأصبحت ممثلة ثانوية ثم تقبلت، بعد تعاسة كبيرة، حقيقة أنها هاوية في الأساس. ونبع مصدر احترامها لذاتها من أنها لم تقلع عن أي نشاط — على حد قولها — وتنسحب إلى الشعور بالأمان في مكان ما؛ إلى الزواج الآمن.

وكان مصدر قلقها السري هو تومي الذي حاربت لأجله سنوات في معركة طويلة مع ريتشارد، الذي عارض في قوة رحيلها وتركها الفتى في منزلها عامًا وحده ليعتني بأموره.

والآن قال في استياء: «رأيت تومي كثيرًا خلال العام الماضي عندما تركته وشأنه ...».

قاطعته بقولها: «إنني أعكف على أن أشرح لك، أو أحاول أن أفعل، أنني فكرت في الأمر تفكيرًا شاملًا وقررت أن من مصلحته تركه بمفرده. لماذا تتحدث دائمًا وكأنه طفل صغير، إنه تجاوز التسعة عشر عامًا وتركته في منزل جيد ومعه المال وكل شيء كان جيد التنظيم.»

– لم لا تعترفين أنك استمتعت كثيرًا بالنزهات في جميع أنحاء أوروبا دون أن يكون تومي معك يقيدك؟

– بالطبع حظيت بوقت ممتع، ولم لا؟

ضحك ريتشارد ضحكات عالية بأسلوب مزعج، وقالت مولي في ضجر: «أوه، دعك من هذا، بالطبع كنت سعيدة لأنني كنت حرة للمرة الأولى منذ أن رُزقت بطفل. ولم لا؟ وماذا عنك، إنك متزوج بماريون، هذه المرأة الطيبة التي تقضي كل دقيقة من وقتها مع أطفالها وتفعل أنت ما يحلو لك، كما أن هناك شيئًا آخر: إنني أعكف على محاولة التوضيح ولكنك لا تستمع أبدًا، إنني لا أريده أن يكبر ويصبح أحد هؤلاء الرجال البريطانيين الملعونين الذين تقودهم أمهاتهم، بل أريده أن ينطلق ويتحرر من قيودي. نعم، هذا ما أريده، ولا تضحك، فلم يكن من الجيد أن نكون أنا وهو في المنزل معًا قريبين جدًّا دائمًا وكل منا على علم بكل ما يفعله الآخر.»

تجهم ريتشارد وبدا عليه الشعور بالضيق وقال: «نعم، أعرف نظرياتك البسيطة في هذا الموضوع.»

عندها دخلت آنا في الحوار وقالت: «ليس الأمر متعلقًا بمولي فقط — بل بكل النساء اللاتي أعرفهنّ — أعني النساء الحقيقيات، فجميعهنّ يقلقن من أن يكبر أبناؤهنّ مثل ... إن لديهنّ سببًا منطقيًّا للقلق.»

صوب ريتشارد نظرات عدائية تجاه آنا، وراقبت مولي كليهما عن كثب.

– مثل ماذا، يا آنا؟

قالت آنا بأسلوب عذب متعمد: «كنت سأقول، تعيسات إلى حد ما في حياتهن الجنسية. أم رأيك أن هذا يعبر عما أقوله تعبيرًا شديد الصدق؟»

احمرّ وجه ريتشارد، فبدا بشعًا، واستدار إلى مولي وقال لها: «حسنًا، إنني لا أقول إنك تعمدت فعل شيء ما كان عليك فعله.»

– أشكرك.

– ولكن ما السوء الذي ينزل بالولد؟ إنه لم يجتز اختبارًا قط بما يتوافق مع المعايير المطلوبة، ولم يذهب إلى أكسفورد، والآن يقضي الوقت دون أن يفعل أي شيء مفيد، يتأمل و....

ضحكت آنا ومولي عند سماع كلمة يتأمل.

قال ريتشارد: «إن الصبي يقلقني، يثير كثيرًا من القلق بداخلي فعليًّا.»

قالت مولي في تروٍ: «إنه يقلقني أيضًا وهذا هو ما سنناقشه الآن، أليس كذلك؟»

– إنني أعكف على عرض أشياء عليه، وأدعوه لكل أنواع التجمعات التي يقابل فيها الناس الذين سيقدمون له النفع.

ضحكت مولي مرة أخرى.

– حسنًا، اضحكي واسخري، ولكن في هذا الوضع لا يمكننا أن نضحك.

– عندما قلت يقدمون له النفع، تخيلت النفع العاطفي. إنني أنسى دائمًا أنك شخص متكبر مغرور.

قال ريتشارد في وقار غير متوقع: «إن الكلمات لا تجرح أحدًا، اشتميني كما يحلو لك، عشتِ حياة وعشتُ حياة. كل ما أقوله هو أن موقعي يسمح لي بأن أقدم للصبي أي شيء يحبه. والآن إنه ببساطة غير مهتم. وإذا فعل أي شيء بنّاء مع أصدقائك فسيكون الأمر مختلفًا.»

– أنت تتحدث دائمًا كأنني أحاول جعل تومي ضدك.

– بالطبع تحاولين فعل ذلك.

– إذا كنت تعني أنني كنت أطرح عليه دائمًا أفكاري بخصوص طريقة حياتك وقيمك ولعبة نجاحك، إلخ، فبالطبع فعلت ذلك. ولماذا يكون متوقعًا مني أن أخفي كل شيء أؤمن به؟ لكنني كنت أقول له دائمًا، ها هو والدك، ولا بد أن تعرف هذا العالم، إنه موجود رغم كل الأماني.

– يا لك من كريمة ومعطاءة.

قالت آنا: «إن مولي دائمًا تحثه على أن يعرف أكثر عنك، وأنا أعلم ذلك، وأنا أيضًا أحثه على فعل ذلك.»

أومأ ريتشارد في ضجر موحيًا بأن ما قالتاه لم يكن مهمًّا.

قالت مولي: «إنك غبي جدًّا يا ريتشارد في تربيتك للأطفال، إنهم لا يحبون التشتت. انظر إلى الناس الذين يعرفهم وهو بجانبي؛ فنانون وكتاب وممثلون … وما شابه.»

– وساسة. ولا تنسي الرفقاء في الحزب.

– حسنًا، ولم لا؟ إنه سيكبر وهو يعرف أشياء عن العالم الذي يعيش فيه، الذي هو أكثر اتساعًا من العالم الذي تعرف عليه أطفالك الثلاثة، سيكون عالمهم منحصرًا في أكسفورد وإيتون. إن تومي يعرف كل أنواع الناس، ولن يرى العالم من المنظور الضيق للطبقة الراقية.

قالت آنا: «لن تتوصلا لأي شيء إذا واصلتما هكذا.» بدا على صوتها الغضب وحاولت أن تزيله بدعابة: «إن هذا الموقف يعني أنه لم يكن من الممكن إطلاقًا زواجكما، لكنكما تزوجتما أو على الأقل لم يكن من الضروري إنجاب طفل، ولكنكما أنجبتما …» وبدا على صوتها الغضب مرة أخرى، ومرة أخرى خففت من حدة صوتها بقولها: «أتدركان أنكما قلتما الكلام نفسه مرارًا وتكرارًا على مدار سنوات؟ لماذا لا تتقبلان أنكما لن تتفقا على أي شيء وينتهي الأمر على ذلك؟»

قال ريتشارد في انزعاج وصوت عالٍ: «كيف ينتهي الأمر على ذلك وبيننا تومي؟! علينا أن نفكر بشأنه.»

قالت آنا: «هل لا بد من أن تصيحا؟! كيف تعرفان أنه لم يسمع كل كلمة قيلت؟ من المحتمل أن يكون هذا هو ما يؤرقه. لا بد أنه يشعر بسبب هذا الخلاف.»

ذهبت مولي فورًا ناحية الباب وفتحته وأنصتت، ثم قالت: «هراء، بوسعي سماعه يكتب على لوحة المفاتيح بأعلى.» ثم عادت وهي تقول: «أزعجتني يا آنا عندما غلب عليك الطابع الإنجليزي وعندما أطبقت شفتيك غضبًا.»

– إنني أكره الأصوات العالية.

– حسنًا إنني يهودية وأحب الأصوات العالية.

انزعج ريتشارد مرة ثانية وبدا عليه ذلك وقال: «نعم، وتسمين نفسك الآنسة جاكوبس، الآنسة، وهذا يخدم حقك في الاستقلالية وفي أن يكون لك هويتك الخاصة مهما عنى ذلك. ولكن تومي لديه الآنسة جاكوبس أمّ له.»

قالت مولي مبتهجة: «إنك لا تعترض على لقب الآنسة، ولكن على لقب جاكوبس، نعم إنه لقبي، فلطالما كنت معاديًا للسامية.»

قال ريتشارد وقد نفذ صبره: «تبًّا!»

– أخبرني كم عدد اليهود بين أصدقائك الشخصيين؟

– أنت لا تعترفين أن لي أصدقاء شخصيين، ولكن أصدقاء عمل؟

– فيما عدا صديقاتك بالطبع، فقد لاحظت عن كثب أن ثلاثًا من صديقاتك بعد انفصالنا كن من اليهود.

قالت آنا: «ياللعبث، إنني ذاهبة إلى المنزل.» ونهضت آنا بالفعل من فوق حافة النافذة. ضحكت مولي ونهضت ثم أجلستها وقالت: «لا بد أن تظلي معنا، باعتبارك رئيس جلسة، إننا في حاجة إلى رئيس.»

قالت آنا في إصرار: «حسنًا، سأظل، ولذا توقفا عن المشاجرة. لم كل هذا على أي حال؟ الحقيقة أننا اتفقنا جميعًا على أن نسدي له النصيحة نفسها، أليس كذلك؟»

قال ريتشارد: «أحقًّا؟»

– نعم، تظن مولي أن عليك تقديم وظيفة لتومي في عمل من أعمالك.

ومثل مولي تتحدث آنا بازدراء تلقائي تجاه عالم ريتشارد، وابتسم هو ابتسامة عريضة بسخط.

– أية وظيفة؟ وهل توافقين على ذلك يا مولي؟

– إذا أعطيتني الفرصة لقول ذلك، نعم أوافق.

قالت آنا: «ها نحن عدنا ثانية، لا مجال لأي مناقشة.»

صب ريتشارد لنفسه كأسًا من الويسكي وانتظر في صبر، وانتظرت مولي هي الأخرى في صبر.

قال ريتشارد: «إذن حُلّ كل شيء؟»

قالت آنا: «بالطبع لا، لأن تومي لا بد أن يوافق.»

– إذن عدنا إلى نقطة البداية، انظري يا مولي هل يمكنني أن أعرف لماذا تعارضين انخراط ابنك العزيز مع عبدة المال؟

– لأنني ربيته على نحو جعل منه إنسانًا فاضلًا، ولذا سيكون بخير حال.

قال ريتشارد مبتسمًا وبغضب متحكم فيه: «إذن لا يمكن أن أفسده؟ وهل يمكن أن أسألك من أين جاءك هذا الاطمئنان الفائق للعادة بخصوص قيمك، هذه القيم باتت تتساقط في السنتين الأخيرتين، أليس كذلك؟»

تبادلت السيدتان النظرات أحدهما مع الأخرى، مما يوحي بقولهما: كان من المرجح أن يقول ذلك، لننهي الأمر إذن.

– لم يخطر في بالك أن المشكلة الحقيقية التي يتعرض لها تومي أنه كان محاطًا نصف حياته بالشيوعيين أو ما يُطلق عليهم الشيوعيين — الذين عانوا التشتت بمختلف صوره، والآن يتركون جميعًا الحزب أو تركوه بالفعل — ألا تظنين أن يكون لذلك أي تأثير؟

قالت مولي: «حسنًا، من الواضح أن ما تقوله صحيح.»

قال ريتشارد مبتسمًا ابتسامة عريضة فيها سخط: «من الواضح؟ بهذه البساطة وما الثمن الذي دفعته مقابل قيمك الثمينة، أن تومي تربى على جمال الوطن السوفييتي المجيد وحريته؟!»

– إنني لا أناقش معك الأمور السياسية يا ريتشارد.

قالت آنا: «لا، بالطبع ليس عليك مناقشة السياسة.»

– ولم لا، إذا كانت ذات صلة بموضوعنا؟

قالت مولي: «لأنك لا تناقشها، إنك تستخدم ببساطة شعارات مستعارة من الجرائد.»

– حسنًا هل أستطيع أن أصف الموضوع بأسلوب آخر؟ منذ عامين كنت أنت وآنا تهرولان مسرعتين إلى الاجتماعات وتنظمان كل الأحداث المرتقبة ....

قالت آنا: «لم أكن كذلك على أي حال.»

– لا تراوغي. مما لا شك فيه أن مولي كانت تفعل ذلك. وماذا يحدث الآن؟ إن روسيا في موقف لا تُحسد عليه وما فائدة الرفقاء الآن؟ إن معظمهم أصيبوا بانهيار عصبي أو جمعوا أموالًا طائلة، وفقًا لما استطعت فهمه.

قالت آنا: «أساس المشكلة أن الاشتراكية في حالة سبات في هذا البلد ...».

– وكذلك في أي مكان آخر.

– حسنًا، إذا كنت تود أن تقول إن إحدى مشكلات تومي أنه تربى اشتراكيًّا وأن المرء لا يواجه القليل حتى يكون اشتراكيًّا، فنحن إذن موافقتان بالطبع.

– نحن رفيعتا المقام، أم نحن الاشتراكيتان، أم نحن آنا ومولي؟

قالت آنا: «بخصوص هذه المناقشة، الاشتراكيتان.»

– ومع ذلك في السنتين الأخيرتين تغيرتما تغيرًا شاملًا.

– لا، لم نتغير. إن هذا الأمر متعلق بطريقة نظرتنا للحياة.

– أتريدينني أن أصدق أن الطريقة التي تنظران بها إلى الحياة التي هي، وفقًا لما أراه، نوع من الفوضى تعد اشتراكية؟

نظرت آنا نظرة خاطفة إلى مولي، وهزت مولي رأسها بأسلوب غير ملحوظ كعادتها دائمًا، ولكنّ ريتشارد رآها وقال: «لا يجب المناقشة أمام الأطفال، هل تقصدين ذلك؟ إن ما يذهلني هو غطرستك الخيالية. من أين اكتسبتها يا مولي؟ من تكونين؟ في هذه الآونة حصلت على دور في رائعة فنية اسمها «أجنحة كيوبيد».»

– نحن الممثلات الثانويات لا نختار المسرحيات التي نمثلها، إلى جانب أنني قضيت عامًا كاملًا أتجول بلا عمل، ولم أجن أي مال وأفلست.

– إذن فإن ثقتك تنبع من تجوالك بلا عمل؟ فمن المؤكد أنها لا تنبع من العمل الذي تؤديه.

قالت آنا: «توقفا، إنني رئيس الجلسة، وهكذا أُغلقت المناقشة. إننا نتحدث عن تومي.»

تجاهلت مولي آنا وهاجمته بقولها: «ربما يكون ما تقوله صحيحًا وربما يكون خاطئًا، ولكن ما مصدر عجرفتك هذه؟ إنني لا أريد لتومي أن يصبح رجل أعمال، فلا يمكن أن تكون هذه شخصية تمثل الحياة. أي فرد يمكن أن يصبح رجل أعمال، ولطالما قلت لي ذلك. أوه ريتشارد إنك لست مقتنعًا بما تقوله، كم مرة حضرت لزيارتي وجلست هنا تتحدث عن مدى فراغ حياتك وغبائها؟»

أصدرت آنا حركة تحذيرية سريعة وقالت مولي وهي تهز كتفيها في غير اكتراث: «حسنًا، إنني لست لبقة في الكلام، ولماذا يجب أن أكون هكذا؟ يقول ريتشارد إن حياتي لا تساوي الكثير، وإنني أتفق معه، ولكن ماذا عن حياته؟ إن زوجتك المسكينة ماريون تعاملها كأنها ربة منزل أو مضيفة ولكنك لا تعاملها أبدًا كإنسانة. وأولادك الذين وُضعوا في دوامة الطبقة الراقية ببساطة لأنك تريد ذلك ولم يُمنحوا أي اختيار. هذا بالإضافة إلى علاقاتك الغرامية التافهة والحمقاء، لماذا من المفترض أن أنبهر؟»

قال ريتشارد وهو ينظر لآنا نظرة عدائية صريحة: «أرى أن كلتيكما تناقشتما بخصوصي.»

قالت آنا: «لا لم نناقش أمورك، أو لم نقل أكثر مما نقوله منذ سنوات. إننا نتحدث عن تومي، جاء لزيارتي وأخبرته أن عليه الذهاب إليك وزيارتك يا ريتشارد وعليه أن يرى هل باستطاعته أن يصرف نظرًا عن أداء إحدى وظائفك الاختصاصية — فيجب ألّا ينخرط في عالم الأعمال، فمن الغباء أن تؤدي وظائف تتعلق بهذا العالم فقط — ويفعل شيئًا بناء، مثل العمل في الأمم المتحدة أو منظمة اليونسكو. إن بإمكانك أن تساعده على الوصول إلى هذه الهيئات، أليس كذلك؟»

– نعم، بإمكاني أن أفعل.

سألت مولي: «ماذا قال يا آنا؟»

– قال إنه يريد أن يكون بمفرده ليفكر. ولماذا لا؟ إنه في العشرين من عمره. ولماذا لا يفكر ويجرب في حياته؟ إن هذا ما يريده، لماذا علينا أن نرهبه؟

قال ريتشارد: «المشكلة هي أن أحدًا لم يُرْهِبْ من قبل.»

قالت مولي: «أشكرك.»

– إنه لم يُوَجَّه قط. وتركته مولي ببساطة وشأنه كأنه شخص بالغ، وحدث ذلك دائمًا. ما المنطق الذي يفهمه الطفل نتيجة ذلك؛ الحرية، أن يتوصل إلى القرارات بمفرده، أن أهله لن يضغطوا عليه، وفي الوقت نفسه يكون محاطًا بالرفقاء والنظام وفكرة التضحية بالنفس والخضوع للسلطة ....

قالت مولي: «لماذا عليك أن تفعل ذلك، إن عليك أن تجد مكانًا في أحد مشروعاتك لا يتمركز فقط حول رفع الأسهم أو الترقية أو جمع المال. ابحث عن وظيفة مثل هذه إن لم تستطع إيجاد شيء بناء، ثم اعرضها على تومي ودعه يقرر.»

أمسك ريتشارد بكأس الويسكي بين يديه ووجهه محمرّ من الغضب وبدا قميصه الضيق فاقع الاصفرار، ولفّ الكأس مرارًا وتكرارًا ونظر داخلها، وقال أخيرًا: «أشكرك، سوف أفعل ما تقولين.» تحدث بثقة شديدة في جودة ما سيعرضه على ابنه، حتى إن آنا ومولي رفعتا حاجبيهما مرة أخرى وإحداهما تنظر إلى الأخرى مما يوحي بأن المحادثة بأكملها ضاعت هباءً، كما هو معتاد. قطع ريتشارد هذه النظرة وقال: «إن كلتيكما في منتهى السذاجة.»

قالت مولي، وتعالت ضحكاتها مرحًا: «بخصوص شئون الأعمال؟»

ردت آنا: «بخصوص شئون الأعمال الضخمة!» قالتها بهدوء بعد أن فوجئت خلال محادثاتها مع ريتشارد باكتشاف مدى قوته. إن هذا لم يتسبب في تعظيم صورته في مخيلتها، بل بدا ينكمش أمام خلفية الأموال الدولية، وأحبت مولي أكثر لافتقارها الكامل لاحترام هذا الرجل الذي كان زوجها، وهو في الواقع أحد مراكز القوة المادية في البلد.

تأوهت مولي في ضجر.

قالت آنا وهي تضحك محاولة جعل مولي تصدر أي رد فعل: «الأعمال الضخمة للغاية» ولكن صديقتها الممثلة تجاهلت الأمر باعتباره غير مهم وهزت كتفيها في لامبالاة، وبسطت يديها البيضاوين وكفيها للخارج ووضعتهما على ركبتيها.

قالت آنا لريتشارد: «سوف أؤثر فيها، أو على الأقل سأحاول فعل ذلك.»

سألت مولي: «عما تتحدثان؟»

قال ريتشارد ساخرًا ومستاءً وغاضبًا: «هراء، أتعرفين أنه على مدار كل هذه السنوات لم تكن مهتمة إطلاقًا حتى بأن تسأل عن الأمر؟»

– كنت تدفع مصاريف المدرسة لتومي وهذا هو كل ما أردته منك.

قالت آنا: «إنك تعرضين ريتشارد على كل فرد منذ سنوات على أنه ... رجل أعمال صغير مغامر، مثل بقال مغرور ببضاعته.» وأضافت ضاحكة: «وتبين أنه من كبار رجال الأعمال حقًا، فرد ذو شأن، واحد من الناس الذين تحتم المبادئ أن نكرههم.»

– أحقًّا؟ وأضافت مولي وهي تنظر إلى زوجها السابق باندهاش إن هذا الرجل العادي الذي — من وجهة نظرها — لا يتمتع بالذكاء الشديد على الإطلاق أصبح ذا أهمية.

فهمت آنا النظرة — كانت تشير إلى ما شعرت به — وضحكت.

قال ريتشارد: «يا إلهي، إن التحدث مع كلتيكما مثله مثل التحدث مع اثنتين من البرابرة.»

قالت مولي: «لماذا؟ أيجب أن نبدي الانبهار؟ إنك حتى لست عصاميًّا، لقد ورثت ما تملكه الآن.»

– وهل هذا يهم؟ إن المهم أنني أصبحت ثريًّا. ربما يكون نظامًا عقيمًا، وإنني لن أناقشه ولن أستطيع مناقشته معكما، إنكما جاهلتان بعلم الاقتصاد جهل القرود، إلا أن ذلك هو ما يحكم هذه الدولة.

قالت مولي: «بالطبع معك حق.» وكانت يداها لا تزال على ركبتيها وكفيها لأعلى، لكنها ضمتهما معًا على رجلها في محاكاة لاإرادية لحركة طفل في انتظار تلقي الدرس.

– لِم تحتقرا هذا الأمر؟ توقف ريتشارد الذي كان ينوى الاستمرار في الحديث ونظر إلى اليدين الرقيقتين الساخرتين وقال مستسلمًا: «يا إلهي!»

– إننا لا نحتقر شيئًا، إن المرء يفقد هويته إذا احتقر شيئًا. إننا نحتقر ....

لم تكمل مولي كلمة «نحتقرك» وحررت يديها من ذلك الوضع، وكأنها شعرت بالذنب لأنها تصرفت على نحو لا يليق سلوكيًّا. أخفت يديها سريعًا وراء ظهرها، وخطر لآنا أنها إذا قالت لمولي إنها أوقفت ريتشارد عن التحدث عن طريق السخرية

منه بحركة من يديها، لن تفهم ما تقصده، ما أروع أن يكون المرء قادرًا على أن يفعل ذلك، يا لها من محظوظة ....

– نعم، أعلم أنكما تحتقرانني، ولكن لماذا؟ أنت لست إلا ممثلة لم يكتمل نجاحها، وآنا مؤلفة لكتاب واحد؟

تحركت يدا مولي تلقائيًّا من جانبيها، ولمست أصابعها ركبتها في تراخٍ وكأنها تقول: «يا لك من ممل يا ريتشارد». وعندها نظر ريتشارد إليهما وعبس وجهه.

قالت مولي: «ليس لهذا أي علاقة بالموضوع.»

– حقًّا؟

قالت مولي على نحو جاد: «إن السبب هو أننا لم نستسلم.»

– تستسلمان لماذا؟

– إذا لم تكن تعرف فلا نستطيع إخبارك.

كان ريتشارد على وشك أن يهب واقفًا من كرسيه، واستطاعت آنا رؤية عضلات فخذه وهي متوترة وترتعد. ومن أجل أن تمنع حدوث مشاجرة قالت سريعًا وهي تحاول توجيه غضبه تجاهها: «هذا هو أساس المشكلة، أنك تتحدث كثيرًا، لكنك بعيد جدًّا عما هو حقيقي، ولا تفهم أي شيء أبدًا.»

نجحت في فعل ما تريد. إذ استدار ريتشارد بجسده تجاهها وانحنى إلى الأمام فأصبحت في مواجهة ذراعيه السمراوين الناعمين الدافئين المغطيين على نحو طفيف بشعر ذهبي، ورقبته السمراء العارية، ووجهه المتوهج المحمر المائل للسمرة. تراجعت للخلف قليلًا وعلا النفور وجهها لاإراديًّا. قال ريتشارد: «حسنًا يا آنا، بدأت أعرفك أكثر من قبل، ولا يسعني إلا أن أقول إنك أبهرتني بمعرفة ما تريدين، وما تفكرين فيه، أو كيف تتعاملين مع الأمور.»

نظرت آنا التي كانت واعية أن وجهها بدأ يتغير لونه إلى عينيه بصعوبة، وتحدثت في بطء متعمد قائلة: «أو ربما ما لا تحبه هو أنني أعرف ما أريد، وأكون مستعدة لخوض التجربة دائمًا، ولا أكذب على نفسي وأتظاهر بأن الأشياء من الدرجة الثانية تعني لي أي شيء أكثر من قيمتها الحقيقية، وأعرف متى يجب أن أقول لا، أليس كذلك؟»

زفرت مولي أنفاسها وهي تنقل بصرها سريعًا بين آنا وريتشارد، وعبرت عن اندهاشها بحركة يديها اللتين انسدلتا على ركبتيها في قوة، ودون أن تعي أومأت برأسها لأن الشك الذي يساورها تأكد ولأنها كانت تستحسن وقاحة آنا. وقالت،

وهي تتحدث في بطء وعجرفة جعلتا ريتشارد يستدير عن وجه آنا ويتوجه إليها: «ما الأمر؟ إن كنت تهاجمنا بسبب الأسلوب الذي نعيش به مرة أخرى، فإن كل ما يجب أن أقوله هو أنه لا يجدر بك أن تتكلم في هذه المسألة كثيرًا ولتنظر إلى حياتك الخاصة كيف تسير.»

قال ريتشارد مظهرًا استعداده لمسايرة ما توقعتاه منه حتى إن كلتيهما، في اللحظة ذاتها، دوت ضحكاتهما عالية: «أنا أحافظ على الشكليات.»

قالت مولي: «نعم، يا عزيزي، نعرف أنك كذلك، حسنًا، كيف حال ماريون؟ كم أحب أن أعرف.»

وللمرة الثالثة يقول ريتشارد: «أرى أنكما ناقشتما الأمر.» قالت آنا: «أخبرت مولي أنك جئت لزيارتي، وأخبرتها بما لم أخبرك به، وهو أن ماريون جاءت لزيارتي.»

قالت مولي: «حسنًا، لنتكلم في هذا الأمر.»

قالت آنا كما لو أن ريتشارد ليس موجودًا معهما بالغرفة: «إن ريتشارد قلق لأن ماريون أصبحت تمثل مشكلة له.»

قالت مولي بنبرة الصوت نفسها: «هذا ليس أمرًا جديدًا.»

ظل ريتشارد جالسًا ينظر إلى السيدتين الواحدة بعد الأخرى. وانتظرت المرأتان أن يُنَحَّى الموضوع جانبًا، أو أن ينهض ريتشارد ويذهب، أو يبرر موقفه، إلا أنه لم يقل شيئًا، وبدا مستمتعًا برؤية السيدتين اللتين تنظران له في عدائية بين الحين والحين، وبفترة الضحك التي تنم عن الاستنكار، حتى إنه أومأ برأسه كأنه يقول: حسنًا، استمرا.

قالت مولي: «كما نعرف جميعًا، تزوج ريتشارد من امرأة أقل منه، ليس من الناحية الاجتماعية بالطبع، فهو لم يكن ليفعل ذلك، ولكنه قال إنها امرأة عادية لطيفة، حباها الله بكل هؤلاء اللوردات والسيدات صاحبات المقام الرفيع المنتشرين في فروع شجرة العائلة القريبة، وهو الأمر الذي أثبت فائدة كبيرة بلا شك للافتات التي تحتوي على أسماء الشركات.»

ضحكت آنا في استخفاف على هذه الكلمات؛ إذ كان اللوردات والسيدات صاحبات المقام الرفيع غير ذوي صلة بالأموال التي يتحكم فيها ريتشارد. لكنّ مولي تجاهلت المقاطعة واستمرت: «بالطبع وعمليًّا كل الرجال المعروفين متزوجون من نساء عاديات لطيفات مملات، وهو أمر محزن، ومن المثير للدهشة أن ماريون شخص جيد وليست غبية على الإطلاق، لكنها تزوجت لمدة خمس عشرة سنة رجلًا جعلها تشعر بالغباء ...».

تنهدت آنا وقالت: «ماذا كان سيفعل هؤلاء الرجال بدون زوجاتهم الغبيات؟!»

– أوه، لا أستطيع التفكير في الأمر، عندما أريد فعليًّا إحباط نفسي، أفكر في كل الرجال الأذكياء الذين أعرفهم المتزوجين من زوجات غبيات، هذه هي الحقيقة التي تثير معرفتها الشعور بالأسى. ولذا تعتبر ماريون امرأة عادية غبية، وبالطبع كان ريتشارد مخلصًا لها كما يفعل معظم الرجال إلى أن تدخل مستشفى الولادة للمرة الأولى.

صاح ريتشارد على نحو لاإرادي كأن هذه المحادثة جادة: «لماذا تعودين إلى الماضي البعيد هكذا؟» مرة أخرى انطلقت ضحكات السيدتين.

لكن مولي أوقفتها وقالت على نحو جاد فيه ضجر: «اللعنة يا ريتشارد لماذا تتحدث كشخص أحمق؟ إنك لا تفعل شيئًا سوى الشعور بالندم على نفسك لأن ماريون نقطة ضعفك وتسأل لِم أعود إلى الماضي البعيد هكذا؟» قالت له غاضبة، على نحو جاد للغاية، وهي تلقي الاتهامات: «متى ذهبت ماريون إلى مستشفى الولادة؟»

قال ريتشارد مستاءً من سوء المعاملة: «منذ ثلاثة عشر عامًا.»

– أتيت مباشرة إليّ، وأنت توقن أنني سوف أضاجعك دون تفكير، حتى إنك شعرت بأن كرامتك كرجل جرحت عندما رفضت، أتتذكر؟ والآن نحن النساء الأحرار نعرف أن اللحظة التي يذهب فيها زوجات أصدقائنا الرجال إلى مستشفيات الولادة، يأتي أزواجهن إلينا، إنهم دائمًا يريدون مضاجعة إحدى صديقات زوجاتهم. لا يعرف أحد ما الدافع وراء ذلك إلا الله؛ إنها ظاهرة نفسية حقيقية ومبهرة منتشرة بين الكثيرين، ولكنها واقع. لم يكن لديّ أي صديقة، ولذا لا أعرف إلى من ذهبت ....

– كيف تعرفين أنني ذهبت إلى امرأة؟

– لأن ماريون تعرف، ويا للأسف إذ تنتشر مثل هذه الأخبار، ومنذ ذلك الحين وأنت تعرف فتيات كثيرات، وعرفتهن ماريون جميعًا، لأن عليك أن تعترف بخطاياك لها، وإلا لما كان الأمر سيصبح ممتعًا، وهل كان سيصبح كذلك إن لم تعترف لها؟

تحرك ريتشارد كأنه سينهض ويذهب، ومرة أخرى رأت آنا توتر عضلات فخذيه واسترخائها، لكنه عدل عن رأيه وظل جالسًا، وابتسامة صغيرة فضولية على شفتيه، بدا رجلًا عازمًا على الابتسام تحت التهديد.

– في ذلك الوقت كانت ماريون تربي ثلاثة أطفال، وهي في شدة التعاسة. ومن حين لآخر تصرف أنظارك عنها حتى إن الأمر لم يكن سيبدو سيئًا للغاية لك لو أنها بحثت لنفسها عن حبيب، أو فعلت ما هو أكثر من ذلك قليلًا. وصل الأمر

بك إلى أن تقول عنها إنها سيدة من الطبقة الوسطى، امرأة رجعية إلى حد يبعث على الملل ... سكتت مولي وابتسمت ابتسامة عريضة لريتشارد واستطردت بنبرة صوت ودودة تنم عن الازدراء قليلًا: «إنك منافق وضيع مغرور.» ومرة أخرى حرك ريتشارد أطرافه على نحو ينم عن عدم الشعور بالراحة وقال كأنه مُنَوَّم تنويمًا مغناطيسيًّا: «أكملي.» ثم قال سريعًا عندما رأى أن هذه الكلمة طلب منه لأن تفعل ذلك: «إن لدي فضولًا لأن أعرف كيف ستقصين الأمر.»

قالت مولي: «لكن من المؤكد أنك لست مندهشًا؟ لا أستطيع أن أتذكر أنني أخفيت قط ما فكرت فيه بخصوص كيفية معاملتك لماريون، أنت أهملتها فيما عدا العام الأول، وعندما كان الأطفال صغارًا لم ترك قط، فيما عدا عندما تضطر إلى الترحيب بأصدقائك في العمل وتنظيم حفلات العشاء الرفيعة وكل هذا الهراء. لكنها لم تكن تجني شيئًا من هذا، ثم أعجب بها أحد الرجال وكانت ساذجة بما يكفي للتفكير في أنك لن تمانع؛ فقد قلت كثيرًا عندما كانت تشكو من علاقاتك بالأخريات: لماذا لا تتخذين لنفسك حبيبًا؟ ومن ثم أقامت علاقة معه، ففتحت عليها أبواب جهنم. لم تستطع أن تتحمل الوضع، وبدأت تهددها. ثم أراد الرجل أن يتزوجها وبالإضافة إلى ذلك يأخذ الأطفال الثلاثة، نعم، كان مهتمًّا بها إلى هذا الحد. ولكنك فجأة أصبحت رجلًا ذا خلق وكأنك أحد الرسل المذكورين في العهد القديم.»

– كان صغيرًا جدًّا عليها، ولم تكن الزيجة ستستمر.

قالت مولي وهي تضحك بازدراء: «أتعني أنها ربما كانت ستصبح تعيسة معه؟ وأنك كنت قلقًا عليها من أن تشعر بالتعاسة؟ لا، لقد جُرحت في غرورك، وعملت بجد من أجل أن تجعلها تقع في غرامك مرة أخرى، ووقعت بينكما مشاهد الغيرة والحب والقبلات إلى اللحظة التي قطعت فيها علاقتها معه نهائيًّا. وفي اللحظة التي عادت لك فيها دون منازع فقدت اهتمامك بها وعدت إلى موظفات السكرتارية على الأريكة الخيالية في مكتبك الكبير الرائع. وتظن أنه من غير العدل ألا تكون ماريون تعيسة وتثير الشجار وتشرب أكثر مما ينبغي لها، أو ربما يجب أن أقول أكثر مما ينبغي لزوجة رجل في مركزك. حسنًا يا آنا، هل هناك جديد منذ أن غادرت في العام الماضي؟»

قال ريتشارد بغضب: «لا حاجة لتمثيل هذه المسرحية الرديئة.» غضب ريتشارد الآن إذ انضمت آنا إلى المحادثة ولم يعد الأمر معركة مع زوجته السابقة.

– جاء ريتشارد ليسألني هل من حقه أن يرسل ماريون إلى أحد الدور أو أي مكان، لأنها تؤثر تأثيرًا سيئًا في الأطفال.

شهقت مولي وقالت: «لم يحدث ذلك يا ريتشارد، أليس كذلك؟»

– بل حدث، وأنا لا أرى سببًا لكون رأيي هذا مروعًا. كانت تشرب بشراهة في هذه الفترة، وهذا سيئ للأولاد، إذ وجدها بول — البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا — في إحدى الليالي عندما نهض من نومه ليشرب فاقدة الوعي على الأرض ثملة.

قالت مولي وصوتها خالٍ من أي مشاعر، حتى من الإدانة: «أكنت تفكر حقًّا في إبعادها عن المنزل؟»

– حسنًا يا مولي، حسنًا، ولكن ماذا كنتِ ستفعلين؟ وأنتِ لستِ في حاجة إلى الشعور بالقلق، فلم تكن صدمة آنا، نائبتك هنا في البلاد، أخف من صدمتك، وجعلَتْني أشعر بأنني مذنب مثلما جعلتني أنت.

كان يضحك لكنه يضحك بأسف، واستطرد: «وفي الحقيقة، عندما تركتك سألت نفسي هل أستحق حقًّا كل هذا البغض؟ لقد بالغت كثيرًا يا مولي، وتتحدثين وكأنني شهريار الذي يقتل زوجاته. أقمت ست علاقات غرامية تافهة، وهكذا فعل معظم الرجال الذين أعرفهم والذين تزوجوا لفترة من الوقت أيًّا كانت، ولكن زوجاتهم لم تعتدن على شرب الكحوليات.»

قالت مولي: «ربما سيصبح من الأفضل إن كنت اخترت امرأة حمقاء متبلدة الشعور، أو يجدر بك ألا تخبرها بما كنت تفعل دائمًا؟ غبي! إنها أفضل منك بآلاف المرات.»

قال ريتشارد: «بديهيًّا، تسلمين جدلًا دائمًا أن النساء أفضل من الرجال، لكنّ هذا لا يساعدني كثيرًا، والآن انظري هنا يا مولي، إن ماريون تثق بك. من فضلك اذهبي إليها بأسرع ما يمكنك وتحدثي معها.»

– ماذا أقول لها؟

– لا أعرف، ولا أهتم، تحدثي قولي لها أي شيء. اشتميني إن أردتِ لكن جربي أن توقفيها عن الشرب.

تنهدت مولي على نحو مفتعل وجلست تنظر إليه وعلى وجهها نظرة ازدراء وشيء من الشفقة.

قالت أخيرًا: «حسنًا، إنني لا أعرف حقًّا، إن الأمر غريب جدًّا. لماذا لا تفعل شيئًا حياله يا ريتشارد؟ لم لا تحاول جعلها تشعر بحبك لها على الأقل؟ ماذا لو أخذتها معك في إجازة أو شيء من هذا القبيل؟»

– أخذتها معي إلى إيطاليا.

لم يستطع ريتشارد أن يمنع نبرة استيائه من أن تملأ صوته لأنه كان عليه أن يصطحبها معه.

قالت السيدتان معًا: «ريتشارد!»

قال ريتشارد: «إنها لا تستمتع بصحبتي، وتعكف على مراقبتي طوال الوقت، وأستطيع أن أراها تراقبني طوال الوقت تحسبًا أن أنظر إلى أي امرأة، وفي انتظار أن أعاقب نفسي، ولا أستطيع تحمل ذلك.»

– هل كانت تشرب وأنتما في الإجازة؟

– لا، ولكن ...

قالت مولي: «هذا هو المطلوب.» وهي تبسط يديها ناصعتي البياض وكأنها تقول، ماذا يمكن أن يُقال إضافةً إلى ذلك؟

– انظري يا مولي، إنها لم تشرب لأنه كان نوعًا من المنافسة، ألم تري ذلك؟ وغالبًا مساومة؛ لن أشرب إن لم تنظر إلى الفتيات. وهذا دفعني دفعًا للجنون، وبالرغم من كل ذلك يواجه الرجال صعوبات عملية معينة، إنني واثق أنكما أيتها السيدتان الحرتان كنتما ستتعاملان مع الأمر بهدوء، لكنني لا أستطيع فعل ذلك مع امرأة تراقبني مثل السجان ... كان الاجتماع بماريون في الفراش بعد ظهر أحد أيام هذه الإجازة الرائعة مثل منافسة للتحدي لإثبات الذات. باختصار لم أستطع تحقيق الانتصاب، هل هذا واضح بما يكفي لكما؟ وقد عدنا منذ أسبوع. وحتى الآن هي بخير حال، وأنا أعود إلى المنزل كل مساء كأي زوج صالح، نجلس ونسلك سلوكًا مهذبًا أحدنا مع الآخر. وهي حريصة على ألا تسألني عما أفعل وعمن أرى، وأنا حريص على ألا أراقب مستوى الويسكي في الزجاجة. لكن عندما لا تكون في الغرفة آخذ الزجاجة، وأستطيع سماع الأفكار التي تعتمل داخل عقلها: لا بد أنه مع إحدى السيدات لأنه لا يريدني. أنا أحيا في الجحيم بحق.

ثم صاح وهو متكئ للأمام ولديه شعور باليأس الحقيقي: «حسنًا يا مولي، لكنك لا تستطيعين تحقيق الاستفادة من كلا الموقفين. إنكما تستمران في الحديث عن الزواج، وربما تكونان على حق، بل من الأرجح أنكما على حق. ولم أرَ زيجة بعد اقتربت بأي حال من الأحوال من الوضع المفترض أن تكون عليه. وهذا حسن، لكنكما تحرصان على عدم الدخول إلى عالم الزواج، فأنا أوافقكما الرأي أن مؤسسة الزواج هي شيء كريه وبشع، ولكنني أحيا في قلبها وأنتما تقدمان الوعظ من الكواليس الآمنة للغاية.»

نظرت آنا إلى مولي نظرة شديدة الجفاف، ورفعت مولي حاجبيها وتنهدت.

قال ريتشارد بروح دعابة: «وماذا نفعل الآن؟»

قالت آنا ردًّا على قوله بروح دعابة أيضًا: «إننا نفكر في الكواليس الآمنة.»

قالت مولي: «هذا هراء، هل لديك أي فكرة عن نوع الألم الذي تتحمله سيدات مثلنا؟»

قال ريتشارد: «حسنًا، إنني لا أعرف شيئًا عن هذا وصراحةً إنه شأنكما أنتما، فلم عليّ الاهتمام؟ لكنني أعرف أن هناك مشكلة واحدة لم تتعرضا لها؛ إنها مشكلة بدنية خالصة: كيف يتحقق انتصاب مع سيدة استمر الزواج منها خمسة عشر عامًا؟»

قال هذا بتعبير من الصداقة الحميمة كأنه يلعب آخر أوراقه وقت الضرورة.

عقبت آنا بعد فترة من الصمت الوجيز: «ربما كان من الأسهل إن اعتدت على ذلك؟»

وهنا تدخلت مولي بقولها: «بدنية؟ أتقول مشكلة بدنية؟ إنها عاطفية. بدأت علاقاتك مع الأخريات في بداية زواجك لأن لديك مشكلة عاطفية، وليس للأمر علاقة بالبدن.»

– لا؟ إن الأمر سهل للنساء.

– لا، إنه ليس سهلًا على السيدات، لكن على الأقل لدينا إحساس أكبر من استخدام كلمات مثل بدني أو عاطفي وكأنهما ليستا متصلتين.

استلقى ريتشارد للخلف على كرسيه وضحك وقال أخيرًا: «حسنًا، إنني مخطئ. بالطبع مخطئ. ربما كان عليّ أن أعرف، لكنني أريد أن أطرح عليكما سؤالًا: هل تظنان فعلًا أنني مخطئ؟ هل أنا الوغد من وجهة نظركما؟ لماذا؟»

قالت آنا ببساطة: «كان عليك أن تحبها.»

قالت مولي: «نعم، هذا صحيح.»

قال ريتشارد حائرًا: «يا إلهي! يا إلهي! أنا أرفع الراية البيضاء. بعد كل ما قلته، ولم يكن الأمر سهلًا ...» كان يتحدث بلهجة تهديد واحمرّ وجهه عندما اهتزت المرأتان وهما تطلقان ضحكات عالية رنانة نابضة بالحياة: «لا، ليس من السهل التحدث بصراحة عن الجنس لسيدات.»

قالت مولي: «لا أتخيل سبب عدم حدوث ذلك، فما قلته ليس جديدًا.»

قالت آنا: «يا لك من ... أبله مغرور، إنك توضح كل هذه الأمور كأنها الإظهار الأخير لنبوءة من نوع ما. أراهن أنك تتحدث عن الجنس عندما تكون بمفردك مع إحدى فتياتك الجميلات، لماذا إذن تتصرف كأنك رجل راقٍ لا لشيء إلا لأن كلتينا موجودتان.»

قالت مولي سريعًا: «إننا لم نتخذ قرارًا بعد بشأن تومي.»

كانت هناك حركة خارج الباب سمعتها آنا ومولي، لكنّ ريتشارد لم يسمعها. قال ريتشارد: «حسنًا يا آنا إنني أنحني أمام ثقافتك الرفيعة. وليس لدينا المزيد لنقوله. والآن أريد منكما أيتها السيدتان البارعتان أن ترتبا لي شيئًا. إنني أريد من تومي أن يأتي إلينا ويقيم معي ومع ماريون، إذا تكرم. أم أنه لا يحب ماريون؟»

خفضت مولي صوتها وقالت وهي تنظر تجاه الباب: «إنك لست في حاجة للشعور بالقلق. عندما تأتي ماريون لزيارتي تتحدث هي وتومي معًا لساعات طويلة.»

صدر صوت آخر، مثل السعال أو صوت طرق، جلس الثلاثة في صمت، فتح تومي الباب ودخل.

لم يكن من الممكن أن يعرفوا هل سمع شيئًا أم لا. ألقى تومي التحية على والده أولًا وفي حرص: «مرحبًا أبي» وأومأ برأسه لآنا وأرخى بصره مخافة أن تتذكر أنه كشف نفسه أمام فضولها الحنون عندما تقابلا آخر مرة، وابتسم لأمه ابتسامة ودودة ولكن ساخرة. بعد ذلك أدار ظهره لهم، ليعد لنفسه بعض الفراولة المتبقية في الطبق الأبيض، وتساءل وهو لا يزال مديرًا ظهره لهم: «كيف هي ماريون؟»

إذن اتضح أن تومي سمع الحوار، تظن آنا أن بإمكانه الوقوف خارج الباب للتنصت. نعم، استطاعت تخيله يتنصت وعلى وجهه الابتسامة الساخرة الخالية من المشاعر التي حيَّا بها والدته.

لم يرد ريتشارد الذي شعر بالارتباك، في حين أصر تومي على سؤاله: «كيف حال ماريون؟»

قال ريتشارد بحماس: «بخير، في أحسن حال.»

– حسن، لأنني عندما قابلتها أمس لاحتساء فنجان قهوة بدت في حالة مذرية.

رفعت مولي حاجبيها سريعًا في وجه ريتشارد، وبدا على وجه آنا الاستغراب الطفيف، وحدق ريتشارد النظر في كلتيهما كأنه يقول إن الموقف بأكمله خطؤهما.

جلس تومي مستمرًّا في عدم النظر إليهما، ومشيرًا بكل حركة من حركات جسمه إلى أنهم استخفوا بفهمه للموقف وعدم مرونة حكمه عليهم، وتناول الفراولة في

إبطاء، وبدا أشبه بوالده، شابًّا ممتلئ الجسم مكتنزًا غامق البشرة، ولم يكن فيه أي أثر لحيوية مولي وثقتها وحماسها. لكن على العكس من ريتشارد، الذي كان عناده الشديد صريحًا ومطلًّا من عينيه الغامقتين وظاهرًا في كل حركة ضجرة يقوم بها، بدا تومي كأنه أخرس، سجين طبيعته الخاصة. كان يرتدي، هذا الصباح، قميصًا ثقيلًا قرمزيًّا وبنطلون جينز أزرقًا واسعًا، لكنه كان سيبدو بمظهر أفضل في سترة عمل بسيطة. وكل حركة تصدر منه وكل كلمة يقولها بدت بطيئة، واعتادت مولي على الشكوى — بروح الدعابة بالطبع — أنه بدا مثل شخص أقسم على العد حتى رقم عشرة قبل أن يتحدث، وشكت أيضًا — بمزاح — في إحدى إجازات الصيف عندما نما لديه شعر اللحية أنه بدا كأنه ألصق اللحية الأنيقة على وجهه الجاد. واستمرت في قول هذه الشكاوى الظريفة بصوت عالٍ إلى أن قال تومي: «نعم، أعلم أنك كنت تفضلين أن أبدو مثلك؛ أعني جذابًا مثلك، لكنه الحظ السيئ. أخذت منك صفاتك الشخصية، وكان من المفترض أن يحدث العكس — أن آخذ منك مظهرك ومن أبي شخصيته — أي آخذ قوة إرادة أبي التي تجعله يستمر إلى النهاية مهما حدث، كان ذلك سيصبح أفضل، أليس كذلك؟» ألح تومي بعناد على رأيه هذا، كما كان يفعل عندما يود أن يُفْهِم أمه إحدى النقاط التي تتظاهر بعدم فهمها. ظل قلقها حيال هذا الأمر يجيش داخلها بضعة أيام حتى إنها تتصل بآنا وتسألها: «ألا يعتبر ذلك شنيعًا يا آنا؟ من كان سيصدق ما حدث؟ أن تفكري في أمر ما سنوات وتتقبليه، ثم تكتشفي فجأة أن من حولك كانوا يفكرون فيه أيضًا؟»

– لكن المؤكد أنك لم تريديه أن يصبح مثل ريتشارد؟

– لا، لكنه محق فيما قاله بشأن الإرادة التي لا تفتر، والطريقة التي قالها بها، إذ قال إن من سوء حظه أن يأخذ مني صفاتي الشخصية.

أكل تومي الفراولة التي في طبقه واحدة بعد أخرى إلى أن انتهى منها، لم يتكلم ولم يتكلموا هم أيضًا، جلسوا يشاهدونه وهو يأكل كأنه أراد منهم فعل ذلك. كان يأكل الفراولة بحذر، وفمه يتحرك وهو يأكل بنفس الطريقة التي يتحرك بها عندما يتحدث، إذ كل كلمة تخرج منفصلة عن التي تليها مثل كل حبة فراولة تدخل فمه كاملة ومستقلة بذاتها. وعبس وجهه طوال الوقت، وعقد حاجبيه الغامقين الخفيفين، مثل صبي صغير يستذكر دروسه، وتحركت شفتاه أيضًا تحركات تمهيدية قبل أن يدفع بالفراولة إلى فمه، مثل شخص مسن، أو كرجل أعمى، هكذا خطر لآنا إذ إنها رأت هذه الحركات من قبل عندما جلست ذات مرة أمام رجل أعمى في القطار، بدا

عليه أنه مسيطر تمامًا على حركات فمه وقد مد شفتيه إلى الأمام بحركة توحي أنه غارق في ذاته وعيناه مثل عيني مولي تبدوان كأنهما تنظران إلى داخله حتى ينظر إلى أحد الأشخاص، كان أعمى بالطبع. شعرت آنا بحالة هستيرية طفيفة تتصاعد داخلها وهي تجلس أمام الرجل الأعمى وتنظر إلى العينين المحرومتين من النظر اللتين بدتا كأن سحابة من التأمل تغيم عليهما. وعرفت أن ريتشارد ومولي لديهما الشعور نفسه؛ كانا عابسين ويتحركان تحركات عصبية تنم عن الشعور بالقلق. إنه يرهبنا جميعًا، يرهبنا ببشاعة، هذا ما خطر لآنا وضايقها. ومرة أخرى تخيلت كيف وقف خارج الباب يتنصت، على الأرجح لفترة طويلة؛ كانت آنا على اقتناع أنه فعل ذلك، واقتناعها هذا فيه نوع من تحامل، وشعرت نحوه بالنفور لأنه مستمتع بجلوسهم في ترقب منتظرين ما سيحدث، وهذه رغبته.

كانت آنا تجبر نفسها أن تقول شيئًا، وتكسر حاجز الصمت لمقاومة ذلك الشعور الذي يبثه تومي والذي جعلها تشعر بأن الكلام شيء محرم، عندها وضع تومي طبقه والملعقة فوقه بعناية، وقال بهدوء: «كنتم أنتم الثلاثة تتناقشون بخصوصي مرة أخرى.»

قال ريتشارد بحماس وبلهجة مقنعة: «بالطبع لا.»

قالت مولي: «بالطبع نعم.»

ابتسم تومي إلى كليهما ابتسامة متسامحة وقال: «جئت لتعرض عليّ وظيفة في إحدى شركاتك، وفكرت في الأمر بعناية كما اقترحت، لكنني لا أظن أنني أستطيع أن أقبلها.»

قالت مولي بنبرة يأس: «أوه يا تومي.»

قال تومي وهو ينظر تجاهها ولكن ليس لها: «أنت مشتتة يا أمي.» كان لديه أسلوب في توجيه بصره تجاه أحد الأشخاص، في حين يظل محتفظًا بتلك النظرة الموجهة إلى داخله، كان وجهه مكفهرًا، حتى إنه يبدو غبيًّا، بفعل المجهود الذي بذله لكي يعامل كلًّا منهم بالطريقة التي تليق به: «إن المسألة لا تتعلق بالحصول على الوظيفة فقط، أليس كذلك؟ إنها تعني أن عليّ الاعتياد على العيش مثلهم.» بدل ريتشارد بين ساقيه، ونفخ في غضب لكن تومي استطرد: «لا أقصد أي نقد يا أبي.»

قال ريتشارد وهو يضحك بغضب: «إن لم يكن هذا نقدًا، فماذا يُعد إذن؟»

قالت مولي وفي صوتها نبرة انتصار: «ليس نقدًا بل هو حكم تقديري.»

قال ريتشارد: «اللعنة.»

تجاهلهم تومي واستمر في التحدث ناحية الجانب الذي تجلس فيه أمه في الغرفة: «المشكلة أنكِ ربيتني — سواء أكانت النتيجة إيجابية أم سلبية — على الاعتقاد في أشياء معينة، والآن تقولين إنني يمكنني أيضًا أن أرحل وأشغل وظيفة في إحدى شركات بورتمين، لماذا؟»

قالت مولي في مرارة وتوبيخ للذات: «أتقصد لماذا لا أقدم لك شيئًا أفضل؟»

– ربما لا يكون هناك أي شيء أفضل، وهذا ليس خطأك، وإنني لا أوحي بأنه خطؤك.

قالها تومي بلهجة رقيقة لم تخلُ من حسم شديد حتى إن مولي تنهدت في وضوح وبصوت عالٍ وهزت كتفيها وبسطت يديها.

– لم أكن سأمانع أن أكون مثل أصدقائك، ليست هذه هي المشكلة، ولكنني ظللت أستمع إلى أصدقائك سنوات طويلة، وبدوتم جميعكم مشتتين أو تظنون هذا حتى وإن لم تكونوا كذلك.

كان يتكلم وهو عاقد حاجبيه وينطق كل عبارة بعد تفكير عميق. واستطرد: «ليست لدي مشكلة في ذلك، ولكن الأمر لم يكن إلا صدفة لكم، فلم يقف أي منكم ويقول لنفسه في مرحلة ما: إنني سوف أكون هذا الشخص بعينه. أقصد إنني أظن أنه فيما يتعلق بك وأيضًا فيما يتعلق بآنا هناك لحظة قالت كل منكما لنفسها فيها باندهاش: يا إلهي، أنا هذا الشخص بعينه، أليس كذلك؟»

تبادلت آنا ومولي ابتسامة وابتسمتا له معترفتين بأن ما قاله صحيح.

قال ريتشارد بلهجة طروبة: «إذن، حُسِمَ هذا الأمر، إن لم ترد أن تصبح مثل مولي وآنا، فهناك بديل متاح.»

قال تومي: «لا، إنني لم أعبر عن نفسي بعد، إن جاز هذا التعبير. لا.»

صاحت مولي بأسلوب لا يحمل أي دعابة بل بدت حادة وخائفة: «لكن عليك أن تفعل شيئًا.»

قال تومي: «أنتِ لا تفعلين شيئًا.» كأن ذلك كان بديهيًّا.

قالت مولي: «لكنك قلت الآن إنك لا تريد أن تصبح مثلنا.»

– ليس الأمر هو أنني لا أريد أن أكون مثلكما، لكنني لا أظن أن ذلك باستطاعتي.

ثم استدار إلى أبيه في توضيح تروى في ذكره، واستطرد: «بخصوص أمي وآنا لا يدعهما أحد بآنا وولف الكاتبة أو بمولي جاكوبس الممثلة إلا إذا كان لا يعرفهما. ما أقصده هو أنهما لا يعبران عما يفعلانه، لكن إن بدأت أعمل معك فسأصبح ما أفعل. ألا ترى ذلك؟»

– بصراحة لا

– إن ما أقصده هو أنني أفضل ....

تلعثم تومي ثم صمت برهة محركًا شفتيه وهو عابس الوجه وقال بصبر، وهو مستعد تمامًا لتحقيق مطالب أبويه الظالمة: «كنت أفكر في الأمر لأنني عرفت أنني سأضطر إلى شرحه لك؛ إن آنا ومولي وأمثالهما لا يمثلون شيئًا واحدًا، بل أشياء متعددة، وأنت تعرف أنه كان باستطاعتهما أن يتغيرا وأن يصبحا شيئًا آخر مختلفًا. إنني لا أقصد أن شخصيتيهما ستتغيران، لكنهما لم يَتَقَوْلبا في قالب معين. إذا حدث شيء في العالم، أو حدث تغير من نوع ما، ثورة أو ما شابه ...» انتظر لحظة بأناة حتى يزفر ريتشارد النفس الذي استنشقه بحدة وتوتر بعد نطق كلمة ثورة، واستطرد بعدها: «كانتا ستصبحان مختلفتين إذا اضطرتا لذلك، لكنك لن تكون مختلفًا إطلاقًا يا أبي، وستكون دومًا مضطرًّا للعيش بالطريقة التي تعيش بها الآن. حسنًا إنني لا أريد أن يحدث هذا لي.» اختتم بقوله هذا سامحًا لشفتيه بالانضمام في غضب، بعد ذكر هذا الشرح.

قالت مولي بصوت متأوه: «ستكون في منتهى التعاسة.»

قال تومي: «نعم، وهذا أمر آخر، فالمرة الأخيرة التي تناقشنا فيها بخصوص كل شيء ختمت حديثك بقولك «يا إلهي، لكنك ستكون تعيسًا جدًّا.» وكأن هذا هو أسوأ شيء في الوجود. ولكنني لم أكن لأصفك أنتِ وآنا بالسعيدتين، لكنكما تعتبران أسعد من أبي على الأقل، فما بالكما بماريون.» أضاف العبارة الأخيرة برقة متهمًا أباه اتهامًا مباشرًا.

قال ريتشارد بانفعال: «لم لا تسمع القصة من منظوري، كما سمعتها من منظور ماريون؟»

تجاهل تومي هذا القول واستطرد: «أعرف أنني أبدو سخيفًا بالضرورة، وكنت أعرف قبل أن أبدأ الحديث أنني سأبدو ساذجًا.»

قال ريتشارد: «بالطبع أنت ساذج.»

قالت آنا: «لست ساذجًا.»

– عندما انتهيت من التحدث معك يا آنا في المرة السابقة، عدت إلى المنزل وظننت أنكِ ستفكرين أنني ساذج للغاية بالضرورة.

– لا، لم أظن فيك هذا الظن، وهذا ليس بالمهم، إن ما يبدو أنك لا تفهمه هو أننا نريدك أن تفعل أفضل مما فعلنا.

– لماذا عليّ فعل ذلك؟

قالت آنا محترمة رأي الشاب: «حسنًا ربما لا تزال هناك احتمالية للتغير وأن نصبح أفضل.» وعندما سمعت نبرة التوسل التي تغلف صوتها ضحكت وقالت: «يا إلهي! ألا تدرك يا تومي كيف جعلتنا نشعر أننا محكوم علينا؟»

ولأول مرة أظهر تومي مسحة من روح الدعابة ونظر إليهما، في البداية لها، ثم لأمه وهو يبتسم: «أنسيتما أنني استمتعت بحديثكما معي طوال حياتي؟ إنني أعرفكما، أليس كذلك؟ وأظن أنكما تتسمان بالطفولية أحيانًا لكنني أفضل هذا على ...» لم ينظر إلى والده، ولم يكمل حديثه.

قال ريتشارد ولديه شعور بالشفقة على نفسه: «من المؤسف أنك لم تعطني قط أي فرصة للحديث.» رد تومي على ذلك بالانسحاب سريعًا عنه بعناد، وقال لآنا ومولي: «إنني أفضل أن أفشل مثلكما، بدلًا من أن أحقق النجاح وأعيش في تداعياته كافة، لكنني لا أقول إنني أختار الفشل، أعني أنه لا يوجد أحد يختار الفشل، أليس ذلك صحيحًا؟ فأنا أعرف ما لا أريد وليس ما أريد.»

قال ريتشارد: «لدي سؤال عملي أو اثنان» في حين كانت آنا ومولي تفكران بسخرية في كلمة الفشل الكلمة التي قالها الصبي بالمعنى نفسه الذي استخدمتاه به من قبل، ومع ذلك فهما لم يطبقاها على نفسيهما، أو على الأقل ليس بهذا الشكل التلقائي والنهائي.

قال ريتشارد: «بماذا ستستعينون على أمور المعيشة؟»

غضبت مولي لأنها لم ترد إخراج تومي من الإطار الزمني التأملي الآمن الذي وفرته له بسبب النيران التي صوبها ريتشارد نحوه متهكمًا.

لكن تومي قال: «إن لم تمانع أمي يمكنني أن أعتمد عليها بعض الوقت. وعلى أي حال أنا لا أكاد أنفق أي شيء. لكن إن اضطررت إلى كسب المال يمكن أن أصبح مدرسًا.»

قال ريتشارد: «هذه الحياة ستكون أكثر تقيدًا بكثير مما أعرضه عليك.»

شعر تومي بالحرج وقال: «لا أظن أنك فهمت حقًّا ما أحاول قوله، فربما لم أقل ما أريد على نحو صائب.»

قال ريتشارد: «ستصبح عاطلًا متسكعًا في المقاهي.»

– لا، لا أشعر أنني سيؤول بي الحال إلى هذا، وأنت تقول هذا فقط لأنك تحب الناس الذين لديهم الكثير من المال.

والآن حل الصمت على آنا ومولي وريتشارد؛ أما السيدتان فلأن الصبي يمكن الثقة به ليدافع عن نفسه، وأما ريتشارد فخاف من إطلاق العنان لغضبه. وبعد برهة عقب تومي: «ربما أحاول أن أكون مؤلفًا.»

تأوه ريتشارد، ولم تنبس مولي ببنت شفة مجاهدةً نفسها، لكنّ آنا صاحت: «أوه يا تومي، حتى بعد كل النصائح المجدية التي منحتها إياك.»

رد على ذلك في رفق خالطه العناد وقال: «إنك تنسين يا آنا، فأنا ليس لدي أفكارك المعقدة عن الكتابة.»

تساءلت مولي بعنف: «أي أفكار معقدة؟»

قال تومي موجهًا كلامه لآنا: «عكفت على التفكير في كل الأشياء التي قلتها لي.»

ألحت مولي في السؤال: «أي أشياء؟»

قالت آنا: «إن المخيف أن يطلعك المرء على شيء يا تومي، قلت شيئًا وتناولته على محمل جدي.»

– لكنك كنت جادة؟

كبحت آنا جماح دافع بداخلها لإنهاء الحديث بدعابة وقالت: «نعم، كنت جادة.»

– نعم، أعلم أنك كنت جادة، ولذا فكرت فيما قلته، وكان فيه شيء من الغرور.

– الغرور؟

– نعم، أظن ذلك، ففي المرتين اللتين أتيت فيهما لزيارتك تحدثت، وعندما رتبت كل ما قيل بدا لي أن به غرورًا، مثل نوع من الازدراء.

كان ريتشارد ومولي جالسين الآن متكئين على ظهر مقعديهما يبتسمان، ويشعلان السجائر، ويتبادلان النظرات، بعد أن نُحِّيا جانبًا.

لكنّ آنا عندما تذكرت صدق الطلب الذي طلبه الصبي منها، قررت أن تهجر حتى صديقتها مولي القديمة، على الأقل هذه الفترة.

– إذا بدا الأمر كازدراء، إذن لا أظن أنني شرحت كلامي على نحو صحيح.

– نعم، لكن يعني ذلك أنكِ لا تثقين بالناس، وأظنك خائفة.

تساءلت آنا: «مما؟» وشعرت أنها عرضة لأن تُفشى أسرارها خاصة أمام ريتشارد وكان حلقها جافًّا ومتألمًا.

– من الوحدة، نعم أعرف أن هذا يبدو غريبًا لكِ لأنك بالطبع اخترت أن تكوني وحيدة بدلًا من أن تتزوجي، لكنني أقصد شيئًا آخر؛ إنك خائفة من كتابة أفكارك

عن الحياة، لأنك ربما تجدين أن أمرك كُشف، وربما تفضحين نفسك، وربما تكونين وحيدة.

قالت آنا في يأس: «أوه، أتظن ذلك؟»

– نعم، وإن لم يكن خوفًا فهو ازدراء. عندما تحدثنا عن السياسة قلتِ إن الشيء الذي تعلمته من كونك شيوعية تمثل في أن أبشع شيء هو ألا يقول القادة السياسيون الحقيقة. قلتِ إن كذبة واحدة صغيرة يمكن أن تمتد وتصبح مستنقع كذب وتفسد كل شيء ... أتتذكرين؟ لقد تحدثتِ عن ذلك لفترة طويلة ... قلتِ ذلك عن السياسة، لكنك تملكين كتبًا كاملة كتبتها لنفسك ولم يرها غيرك. قلتِ إنك تظنين أنه في جميع أنحاء العالم كتبٌ في الأدراج يكتبها الناس لأنفسهم ... حتى في الدول التي لا تعد فيها كتابة الحقيقة أمرًا خطيرًا. أتتذكرين يا آنا؟ حسنًا هذا نوع من الازدراء.

كان ينظر ولكن ليس تجاهها، بل كان موجهًا إليها نظرة محدقة صادقة تأملية منقبة في ذاته، ورآها الآن ووجهها محمرّ وبدا عليه التأثر الشديد، لكنه استعاد نفسه وقال بتردد: «آنا، كنتِ تقولين ما تفكرين فيه فعليًّا، أليس ذلك صحيحًا؟»

– نعم.

– لكنك لم تتوقعي دون شك يا آنا ألا أفكر فيما قلتِ؟

أغمضت آنا عينيها وهلة وابتسمت ابتسامة تنم عن شعورها بالألم وقالت: «أظن أنني لم أقدر جيدًا جدية تناولك للموضوع.»

– هذا هو الشيء نفسه، مثله مثل موضوع الكتابة، لماذا يجب ألا أتناوله على محمل الجد؟

قالت مولي منضمة إلى المحادثة بحزم: «لم أعرف أن آنا تكتب على الإطلاق في هذه الأيام.»

قالت آنا سريعًا: «لم أكتب.»

قال تومي: «ها أنت تعودين مرة أخرى، لماذا تقولين ذلك؟»

– أتذكر أنني أخبرتك أنني أصبت بشعور مروع بالاشمئزاز والعبث، وربما لا أحب نشر هذه الأحاسيس.

قال ريتشارد وهو يضحك: «إذا كانت آنا تملؤك بالاشمئزاز من الأدب، فلن أتشاجر معها هذه المرة إذن.»

كانت هذه الملحوظة غير حقيقية حتى إن تومي تجاهل والده ببساطة، عن طريق إحراجه بأدب والاستمرار مباشرة بقوله: «إذا كنت تشعرين بالاشمئزاز فأظهري شعورك هذا، لِمَ تتظاهرين بعدم الشعور به؟ ولكن المهم هو أنكِ كنتِ تتحدثين عن المسئولية، وهذا هو ما أشعر به أيضًا ... فلا يتحمل أحد من الناس مسئولية الآخر. قلتِ إن الاشتراكيين لم يصبحوا قوة أخلاقية، على الأقل في هذا الوقت، لأنهم لم يتحملوا المسئولية الأخلاقية، فيما عدا بعض الأفراد، قلت ذلك، أليس كذلك؟ ولكنكِ تكتبين مرارًا وتكرارًا في دفاترك وتسردين أفكارك عن الحياة ولكنك تحبسينه في الأدراج، وهذا ليس من المسئولية في شيء.»

– عدد كبير جدًّا من الناس سيقولون إنه الاستهتار بالمسئولية أن ننشر مشاعر الاشمئزاز أو الفوضى أو الشعور بالارتباك.

هكذا قالت آنا وهي تضحك ضحكة خفيفة، وهي حزينة ونادمة، محاولة أن تجعله يتفق معها على ما قالته.

أنهى تومي على الفور الحديث، وعاد بظهره إلى الخلف، مظهرًا أنها خيبت أمله. كانت آنا مثلها مثل الجميع — حسبما تشير وضعية جلوسه التي أطل منها الصبر والعند — من المرجح جدًّا أن تسبب له الشعور بالإحباط. انسحب إلى داخل نفسه وقال: «على أي حال هذا هو ما نزلت إليكم لأقوله، فأنا أفضل أن أستمر دون الالتزام بالعمل أو الدراسة لمدة شهر أو اثنين، فلذلك تكلفة تقل كثيرًا عن الذهاب إلى الجامعة كما أردتم.»

قالت مولي: «إن النقود ليست هي ما يهم.»

قال ريتشارد: «ستعرف أن النقود هي ما يهم. عندما تغير رأيك اتصل بي»

قال تومي معاملًا أباه بما يليق به: «سأتصل بك في جميع الأحوال.»

قال ريتشارد موجزًا وهو يشعر بالمرارة: «أشكرك.» ووقف برهة وهو يبتسم للسيدتين ابتسامة عريضة يطل منها الغضب الشديد وقال: «سأمر عليك في الأيام القادمة يا مولي.»

قالت مولي في لطف: «في أي وقت.»

أومأ ريتشارد في برود لآنا ووضع يده برهة على كتف ابنه الذي لم يتجاوب معه فخرج. وعلى الفور نهض تومي وقال: «سأصعد إلى غرفتي.» مشى للخارج، ورأسه للأمام، ويده تتلمس مقبض الباب، انفتح الباب واسعًا بما يكفي الخروج

منه، وبدا يستخرج نفسه من الغرفة بشق الأنفس، وسمعت مولي وآنا خطوات قدمه المنتظمة القوية على السلم.

قالت مولي: «حسنًا.»

ردت آنا: «ماذا الآن؟» ولديها الاستعداد لأن تدخل في تحدٍّ.

– يبدو أن أشياء كثيرة حدثت وأنا مبتعدة.

– لسبب واحد، يبدو أنني قلت لتومي أشياء ما كان ينبغي قولها.

– أو ربما لم تقولي له ما يكفي.

قالت آنا بجهد: «نعم، أعرف أنكِ تريدينني أن أتحدث عن المشكلات الفنية وما شابه، لكن الأمر لم يكن هكذا لي ...» تمهلت مولي وبدت متشككة فيما تقول صديقتها ولديها شعور بالمرارة. استطردت آنا: «إن نظرت إلى الموضوع من منظور مشكلة فنية فسيكون الأمر سهلًا إذن، أليس كذلك؟ فبإمكاننا أن ندخل في أحاديث ذكية عن الرواية الحديثة.» كان صوتها مفعمًا بالقلق وحاولت الابتسام من أجل تخفيف حدته.

– ما المكتوب في هذه الدفاتر إذن؟

– إنها ليست دفاتر.

– أيًّا كانت، ماذا فيها؟

– فوضى وتشتت، هذا ما تشتمل عليه.

جلست آنا تراقب أصابع مولي السميكة البيضاء وهي تلتوي وتتعانق وكأن يديها تقولان: «لماذا تجرحينني هكذا؟ وإن أصررت على جرحي سأتحملك.»

قالت مولي: «إذا كتبت رواية من قبل فلا أرى أي سبب لا يجعلك قادرة على أن تكتبي أخرى.» لم تستطع آنا أن تكتم ضحكتها وامتلأت عينا صديقتها بالدموع فجأة.

– لم أكن أضحك مما تقولين.

قالت مولي وهي مصرة على أن تكبت الدمع في مقلتيها: «إنكِ لا تفهمين، دومًا ما كان إنتاجك لعمل ما هو شيء مهم جدًّا لي، حتى إن لم أقدم أي شيء.»

كانت آنا على وشك أن تقول لها في عناد: «لكنني لستِ امتدادًا لكِ.» لكنها كانت تعرف أن هذه الكلمات يمكن أن تقولها لأمها، ولذا توقفت. باستطاعة آنا تذكر أمها على نحو طفيف؛ إذ ماتت منذ زمن بعيد، ولكن في لحظات كهذه كانت قادرة على أن تكون بمخيلتها صورة شخصية قوية مسيطرة وعلى آنا أن تقاومها.

قالت آنا: «إنك تستشيطين غضبًا بسبب أشياء معينة.»

– نعم، إنني غاضبة، إنني في شدة الغضب من كل الناس الذين أعرف أنهم يضيعون أنفسهم هباءً. ليس الأمر متعلقًا بكِ وحدك، بل كثير من الناس يفعلون ذلك.

– حينما كنتِ بعيدة عن هنا حدث شيء أثار اهتمامي؛ أتتذكرين بيزل ريان الرسام؟

– بالطبع أعرفه.

– نشر تصريحًا في الجريدة يقول فيه إنه لن يرسم مرة أخرى إطلاقًا، قال إن ذلك بسبب أن العالم فوضوي جدًّا وأن الفن لا يمت له بصلة.

ساد الصمت إلى أن استأنفت آنا: «ألا يعني ذلك أي شيء لكِ؟»

– لا، وخاصة حينما تقولينه أنت لي، فأولًا وأخيرًا لست شخصًا يكتب الروايات الصغيرة التي تتحدث عن العواطف، إنك تكتبين عما هو واقعي.

كانت آنا على وشك أن تنخرط في الضحك مرة أخرى، ولكنها قالت في جدية: «أتدركين عدد الأشياء التي نقولها وتعد صدى لأشياء أخرى؟ فالملحوظة التي ما لبثت أن قلتها هي صدى من نقد الحزب الشيوعي ... في أسوأ لحظاته، ولا أحد يعرف سوى الله ماذا تعني، وأنا لا أعرف أيضًا، ولم أعرف قط. فإن كانت الماركسية تعني أي شيء فإنها تعني أن رواية صغيرة عن العواطف يجب أن تعكس «ما هو واقعي» لأن العواطف هي وظيفة المجتمع ونتاجه ...» توقفت بقولها هذا بسبب التعبير الذي ارتسم على وجه مولي. «لا تنظري هكذا يا مولي، قلتِ إنكِ أردتِ مني التحدث عن هذا الأمر، وها أنا ذا أتحدث. وهناك شيء آخر، رائع إن لم يكن محزنًا للغاية؛ ها نحن عام ١٩٥٧ بعدما طويت كل الصفحات القديمة ... تظهر فجأة في إنجلترا ظاهرة في الفنون لم أتوقع حدوثها قط، إذ ظهرت على حين غرة مجموعة كبيرة من الأفراد الذين لا يمتون إطلاقًا للحزب بصلة، يهتفون هتافات قوية — وكأنهم فجأة تدبروا الأمر — إن الروايات أو المسرحيات الصغيرة التي تتحدث عن العواطف لا تعكس الواقع، والشيء الذي يثير دهشتك لسماعه هو أن الواقع هو الاقتصاد أو الأسلحة الآلية التي تبيد الناس الذين يعترضون على النظام الجديد.»

أسرعت مولي بقولها: «لأنني لا أستطيع التعبير عن نفسي، أظن أنه من غير العدل فعل ذلك.»

– على أي حال كتبت رواية واحدة.

– نعم، وماذا ستفعلين عندما تتوقف الأموال التي تدرها عليك عن التدفق؟ كنتِ محظوظة في هذه الرواية لكن سيكون للنقود نهاية في أحد الأيام.

ظلت آنا محتفظة بهدوئها بشق الأنفس، فما قالته مولي كان ضغينة واضحة، كانت تقول: إنني سعيدة لأنكِ سوف تتعرضين للضغوط التي اضطررنا لمواجهتها، في حين حدثت آنا نفسها: أتمنى لو لم أصبح شديدة الوعي بكل شيء، بكل الفروق البسيطة. في الماضي لم أكن ألحظ هذه الأشياء، ولكن الآن تبدو كل محادثة وكل مقابلة مع أحد الأشخاص كأنها محاولة لعبور حقل ألغام، ولماذا ليس بوسعي تقبل أن يغرس أقرب الأصدقاء في لحظة من اللحظات سكينًا — بعمق — بين الضلوع؟

كادت آنا تقول لها بلهجة جافة: ستكونين سعيدة لسماع أن المال الذي يأتيني بات شحيحًا، وسأضطر إلى إيجاد وظيفة سريعًا. ولكنها قالت بمرح ردًّا على المعنى السطحي لكلمات مولي: «نعم، أظن أنني سأكون في حاجة إلى المال سريعًا جدًّا وسأضطر إلى الحصول على وظيفة.»

– ولم تفعلي أي شيء وأنا بعيدة.

– من المؤكد أنني فعلت أشياء كثيرة معقدة في حياتي.» نظرت إليها مولي في تشكك، لذا استسلمت آنا وقالت بلهجة مازحة ولكنها حزينة: «كان عامًا سيئًا، وأحد الأشياء السيئة التي وقعت فيه هي أنني كدت أدخل في علاقة مع ريتشارد.

– لا بد أنه كان عامًا سيئًا لك حتى إنك فكرتِ في ريتشارد.

– هناك حالة مثيرة جدًّا من الفوضى، ستفاجئين بها ... لماذا لم تتحدثي قط مع ريتشارد عن عمله، يا له من أمر شديد الغرابة.

– أتعنين أنكِ كنت مهتمة به لأنه ثري جدًّا؟

– يا إلهي، بالطبع لا يا مولي. أخبرتك أن كل شيء ينهار، وهؤلاء الناس، أبناء الطبقات العليا، لا يثقون بأي شيء، إنهم يذكرونني بالبيض في وسط أفريقيا ... اعتادوا أن يقولوا: «بالطبع سيزج بنا السود في البحر في غضون خمسين عامًا.» واعتادوا أن يقولوا ذلك بمرح، وكأنهم يقولون: «إننا نعرف أن ما نفعله خطأ» لكن حدث في أقل من خمسين عامًا بكثير.

– وماذا عن ريتشارد؟

– اصطحبني لتناول عشاء فاخر؛ كان ذلك بمناسبة حصوله على حصة كبيرة من الأسهم تعطيه حق إدارة في كل شركات أوروبا العاملة في تصنيع أواني الألمونيوم أو المنظفات أو ربما مراوح الطائرات أو شيء من هذا القبيل. وكان هناك أربعة

رجال أعمال أثرياء وأربع سيدات جميلات وكنت أنا إحداهن. جلست ونظرت في الوجوه المحيطة بالطاولة، ويا إلهي، كان الأمر مروعًا. عدت إلى قاعدتي الشيوعية الأكثر بدائية، أتتذكرين عندما نفكر أن كل ما علينا فعله هو التخلص من الأوغاد؛ أي قبل أن نعلم أن نظراءهم غير مسئولين عن شيء. نظرت إلى هذه الوجوه، وجلست أنظر مرارًا وتكرارًا إليها.

قالت مولي: «لكنّ هذا هو ما قلناه دائمًا، إذن ما الجديد؟»

– أنا أود أن أرسم لك الصورة كاملة. ثم إن الطريقة التي تعاملوا بها مع السيدات اللاتي كن بصحبتهم كانت لاإرادية. يا إلهي، ربما نمر بلحظات نشعر فيها بالاستياء من حياتنا ولكن ما أسعد حظنا، فرجالنا على الأقل يعرفون شيئًا عن التحضر.

– لم تخبريني بشأن ريتشارد.

– نعم، حسنًا، لم يكن الأمر مهمًّا، كان عارضًا، فقد اصطحبني إلى منزلي في سيارته الجاجوار الجديدة، وعرضت عليه احتساء القهوة، وكان مستعدًّا لأقصى درجة. جلست معه وفكرت: لا يعتبر ريتشارد أسوأ من بعض البلهاء الذين أقمت معهم علاقات.

– ماذا دهاكِ يا آنا؟

– تقصدين أنك لم تشعري قط بهذا الاستنزاف الأخلاقي البشع، ما أهمية ذلك بحق الجحيم؟

– إنه أسلوب تحدثك الجديد.

– ربما تكونين على حق، إلا أنه خطر لي أننا إذا عشنا الحياة المعروفة بأنها حياة حرة، الحياة التي يعيشها الرجال، فلمَ لا نستخدم اللغة نفسها التي يستخدمونها؟

– لأننا لسنا سواء، هذا هو السبب.

ضحكت آنا وقالت: «الرجال، السيدات، القيود، الحرية، الخير، الشر، القبول، الرفض، الرأسمالية، الاشتراكية، الجنس، الحب ...».

– ماذا حدث مع ريتشارد يا آنا؟

– لم يحدث شيء، أنت تعطين الموضوع أكبر من حجمه. جلست أحتسي القهوة وأنظر في وجهه الغبي وأفكر في أنني إن كنت رجلًا فسأذهب إلى الفراش ببساطة شديدة لأنني ظننت أنه غبي ... أنا أقصد إن كان هو امرأة. ثم شعرت بالسأم الشديد، قمة السأم. وبعدها شعر هو بشعوري وقرر أن يستردني، لذا وقف وقال:

أرى أنه من الأفضل العودة إلى المنزل رقم ١٦ في بلان أفينيو، أو أيًّا كان عنوان المنزل. وتوقع مني أن أقول له: لا، لا أستطيع تحمل مغادرتك. أتعرفين، إنه يحاول أن يبدو الرجل المسكين المتزوج المتعلق جدًّا بزوجته وأولاده، فجميعهم يفعلون ذلك. أرجو أن تعذريني، لا بد أن أذهب إلى المنزل رقم ١٦ في بلان أفينيو؛ ذلك المنزل الكئيب المزود بالأجهزة المريحة في الضواحي. قالها مرة واحدة، ثم كررها ثلاث مرات كأنه لم يسكن هناك ولم يكن متزوجًا وكأنه لا علاقة له بشيء؛ المنزل الصغير الكائن في رقم ١٦ ببلان أفينو وسيدة هذا المنزل.

– لنكن أكثر دقة؛ إنه قصر عظيم به خادمتان وثلاث سيارات في ريتشموند.

– لا بد أن تعترفي أنه يوحي لكِ بأنه من قاطني الضواحي، أمرٌ غريب، لكنهم جميعًا كذلك، أقصد كبار رجال الأعمال جميعهم، فبإمكان المرء أن يتخيل هذا المنزل المزود بالأجهزة المريحة والأطفال في ملابس النوم وهم ذاهبون ليقبلوا والدهم ويتمنون له ليلة هادئة. يا لهم جميعًا من خنازير قانعون بما هم فيه.

قالت مولي: «إنكِ تتحدثين كأنك عاهرة.» ثم بدت تعي ما تقول وابتسمت لأنها فوجئت باستخدامها الكلمة.

– من الغريب أنني أبذل مجهودًا شاقًّا للغاية حتى لا أشعر أنني كذلك. إنهم يبذلون مجهودًا كبيرًا — دون وعي منهم بالطبع، وهذا هو سبب فوزهم — لكي يجعلوكِ تشعرين أنك عاهرة. حسنًا على أي حال قلت له: «طاب مساؤك يا ريتشارد، أنا أشعر بالنعاس، أشكرك شكرًا جزيلًا على أنك أريتني مظاهر الحياة الراقية هذه.» وقف في مكانه يتساءل هل يجب أن يقول: عزيزتي، لا بد أن أعود إلى المنزل إلى زوجتي الكئيبة للمرة الرابعة. كان يتساءل عن سبب كون هذه المرأة الواقعية — آنا — غير متعاطفة معه، ثم استطعت ملاحظة أنه يفكر في أنني لست إلا امرأة مهتمة بالفكر، ويتحسر لأنه لم يذهب مع إحدى الفتيات الأخريات اللاتي يعرفهنّ. تمهلت لحظة، تلك اللحظة التي يردون فيها لنا ما نستحقه. قال ريتشارد: «يجب أن تهتمي بنفسك أكثر يا آنا، إنكِ تبدين أكبر من سنك بعشر سنوات، كما تزداد التجاعيد على نحو هائل.» لذا قلت له: «لكن يا ريتشارد إذا قلت لك هيا معي إلى الفراش، فستقول في هذه اللحظة ما أجملك، ومن المؤكد أن الحقيقة تكمن في مكان ما بين هذين الوصفين، أليس كذلك؟ ...

كانت مولي تمسك بوسادة بالقرب من ثدييها، حاضنة إياها، وتضحك.

– ولذا قال: «ولكن عندما دعوتني لاحتساء القهوة يا آنا لا بد أنكِ كنتِ تعرفين ماذا تعني. إنني رجل مكتمل الرجولة، وإما أن أقيم علاقة مع امرأة أو لا.» لذا سئمت منه بعد ذلك وقلت له: «أوه، انصرف يا ريتشارد، يا لك من شخص ممل شنيع ...» لذا بوسعك فهم أنه كان لا بد أن توجد «توترات» بيني وبين ريتشارد اليوم.

توقفت مولي عن الضحك وقالت: «أنتِ وريتشارد! لا بد أنكما مجنونان.»

قالت آنا بنبرة صوت شديدة الجدية: «نعم، نعم يا مولي، أظن أنني لست بمنأى عن الجنون.»

عندما سمعت مولي هذه الجملة نهضت وسريعًا قالت: «سأعد الغداء الآن.» كانت النظرة التي رمقت بها آنا تنم عن الشعور بالذنب والندم. ونهضت آنا أيضًا وقالت: «إذن سوف أذهب إلى المطبخ لحظة.»

– أخبريني بما لديكِ.

قالت آنا وهي تتثاءب غير مهتمة تمامًا: «فكري في الأمر، ماذا هناك من جديد يمكنني أن أخبرك به؟ كل شيء على حاله، تمامًا كما هو.»

– ألم يحدث أي جديد خلال عام؟ المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي. المجر، السويد. ودون شك التقدم الطبيعي الذي يحدث في قلب البشرية من شيء لآخر؟ وتقولين لم يتغير شيء؟

كان المطبخ الصغير أبيض اللون وشديد التنظيم يتلألأ بفعل الضوء المنعكس من الأكواب والأطباق الملونة المصطفة بعضها فوق بعض، بالإضافة إلى نقاط البخار الذي يتكثف على الجدران والسقف، وغطت قطرات الماء زجاج النوافذ. وبدا الفرن كأنه يتمدد بفعل الحرارة المستعرة بداخله. فتحت مولي النافذة بقوة فاندفعت رائحة اللحم المشوي الساخنة فوق الأسطح الرطبة والأفنية المتربة في حين تسللت أشعة الشمس من فوق حافة النافذة وبسطت خيوطها على الأرض.

قالت مولي: «إنجلترا، إنجلترا. إن الرجوع في هذا الوقت كان أسوأ من المعتاد، إذ شعرت أن الحيوية تتسلل من داخلي حتى وأنا لا أزال على سطح المركب. ذهبت إلى المتاجر بالأمس ونظرت في الوجوه اللطيفة الجميلة، وكان الناس جميعهم طيبين ولطفاء، ولكن السأم الشديد ينبعث منهم.» حدقت النظر برهة خارج النافذة، ثم استدارت بجسمها وظهرها لآنا.

– من الأفضل أن نتقبل حقيقة أننا والجميع ممن نعرفهم من المحتمل أن نقضي حياتنا متذمرين من إنجلترا، ومع ذلك نعيش فيها.

– سأغادر قريبًا مرة أخرى، لولا تومي كان من الممكن أن أغادر غدًا، فبالأمس كنت أتدرب في المسرح، ووجدت أن كل الرجال في فريق التمثيل شواذ ما عدا شخصًا واحدًا يبلغ من العمر ١٦ عامًا. إذن ماذا أفعل هنا؟ عندما سافرت وابتعدت، كان كل شيء يحدث على نحو من التلقائية، والرجال يعاملونك كما يجب أن تُعامل النساء، ولذا تشعرين أنك في خير حال. ولم أتذكر قط ما عمري ولم أفكر في الجنس قط. أقمت علاقة مع اثنين من الشواذ ولم يكن فيها أي شيء يبعث على الشعور بالألم، كل شيء سهل. لكن فور أن وطئت قدمي هذه الأرض، كان يجب أن أكبح جماح نفسي وأتذكر دائمًا أن هؤلاء الرجال إنجليز وأن أكون على حذر دائم، فيما عدا استثناءات نادرة، ومن ثم أصبح على وعي بذاتي وبالجنس، فكيف لبلد يعج بأشخاص ضائعين أن يكون ذا فائدة؟

– ستعتادين الأمر بعد أسبوع أو اثنين.

– لا أريد أن أعتاد الأمر، وأستطيع أن أشعر بالرغبة في الرحيل تزحف بالفعل بداخلي، وهذا المنزل يجب أن يعاد طلاؤه مرة أخرى، وأنا لا أريد أن أقوم بأعمال الدهان وتعليق الستائر. لماذا يتطلب كل شيء كل هذا العمل الشاق هنا؟ إن الأمر ليس كذلك في أوروبا، فقد يهجع المرء ساعتين بالليل ويكون سعيدًا، لكن هنا ينام المرء ويبذل مجهودًا ....

قالت آنا ضاحكة: «نعم، معكِ حق، وأنا على يقين من أننا سنظل سنوات نقول الكلام نفسه إحدانا للأخرى في كل مرة نعود فيها من مكان ما بالخارج.»

اهتز المنزل بسبب مرور قطار تحت الأنفاق بالقرب منه، وأضافت آنا وهي تنظر إلى السقف: «وعليكِ أن تفعلي شيئًا حيال هذا السقف.» ظل المنزل — الذي دمر سقفه بعد إلقاء قنبلة عليه قرب نهاية الحرب — خاويًا مدة عامين، تطيح بحجراته الرياح والأمطار، ثم رُمم مرة أخرى، وعندما تمر القطارات يمكن سماع صوت حبيبات مواد البناء وهي تتساقط خلف الأسطح التي يغطيها الدهان النظيف، إلى جانب أن السقف متصدع.

قالت مولي: «اللعنة! لا أستطيع تقبل الأمر، لكنني أظن أن عليّ فعل ذلك. ولماذا يحدث ذلك، وفي هذا البلد فقط، يبدو كل شخص نعرفه كأنه يضع قناعًا جميلًا على الأشياء، وجميعهم يحملون عبئًا بجسارة.» غشيت الدموع عينيها، فأغمضتهما للتخلص منها، واستدارت وظهرها للفرن.

– لأن هذا هو البلد الذي نعرفه، والدول الأخرى لا نفكر فيها.

– هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، وأنتِ تعرفين ذلك، ومن الأفضل أن تجهزي ما لديك من أخبار. سأعد الغداء في دقيقة.

كان هذا دور مولي للإفصاح عن جو الوحدة الذي تعيش فيه، وأنها لم تجد من يفهمها. كانت يداها اللتان أطل منهما الشجن والجَلَدْ تلومان آنا، وآنا تفكر: إذا اشتركت الآن في جلسة «ماذا دهى الرجال» فلن أعود إلى المنزل إذن، وسأظل للغداء وطوال فترة بعد الظهيرة، وسوف نشعر أنا ومولي بدفء المشاعر والمودة، وتختفي كل الحدود، وعندما أرحل وأتركها سيأتيها شعور بالاستياء المفاجئ والضغينة لأن ولاءنا الحقيقي على الرغم من أي شيء يكون للرجال دومًا وليس للنساء ... جلست آنا محاولة أن تكف عن التفكير في هذا الأمر، ولكنها لم تفعل، إذ حادثتها نفسها: أريد أن أنتهي من هذا كله، أنتهي من قضية «الرجال في مواجهة النساء»، وأنتهي من كل الشكاوى وكلمات اللوم وحوادث الخيانة، فهذا كله نوع من الخداع، لقد اخترنا أن نعيش على نحو معين في ظل معرفتنا بكل العقوبات التي ستواجهنا، وحتى إن لم نكن على علم بها في السابق فقد عرفناها الآن. إن لم أكن حذرة فسننحدر أنا ومولي إلى اثنتين من العوانس المسنات، إذ نجلس تقول إحدانا للأخرى: هل تتذكرين كيف قال هذا الرجل الذي لا أذكر اسمه هذا القول الجارح، لا بد أن ذلك حدث عام ١٩٤٧ ....

قالت مولي بحماس لآنا التي وقف صامتة بعض الوقت: «هاتي ما عندك.»

– إنكِ لا تريدين سماع أي شيء عن الرفقاء على ما أظن؟

– في فرنسا وإيطاليا يتحدث المفكرون طوال الليل والنهار عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والمجر، والتوقعات والدروس والأخطاء التي يجب التعلم منها.

– في هذه الحالة، نظرًا لأن الأمر سواءٌ، مع أن الناس حمدًا لله يتنامى لديهم الشعور بالملل من هذا الأمر، فسوف أسقط هذا الموضوع من الحديث.

– جيد.

قالت آنا: «لكنني أرى أنني سأذكر ثلاثة من الرفقاء بصورة عابرة فقط» ثم أضافت سريعًا في حين عبست مولي: «ثلاثة من خيرة أبناء الطبقة العاملة ومسئولي اتحاد نقابات العمال.»

– من؟»

– توم وينترز، ولين كولون، وبوب فاولر.

قالت مولي سريعًا: «بالطبع أعرفهم.» فهي دائمًا تعرف كل الناس أو تكون على معرفة سابقة بهم، واستطردت: «وماذا عنهم؟»

– قبل المؤتمر مباشرةً، عندما كانت هناك كل هذه البلبلة في الأوساط الخاصة بنا، بسبب هذه المؤامرة أو تلك، أو حول قضية يوغوسلافيا ... أو ما شابه من الأمور، وتصادف أن واجهتم بخصوص ما أشاروا له إشارة طبيعية على أنه من الأمور الثقافية، كانوا يتصرفون على نحو من الاستعلاء، وفي تلك الأثناء كنت أقضي أنا وأمثالي كثيرًا من الوقت في نضال داخل الحزب — ويالنا من أشخاص ساذجين — محاولين إقناع من حولنا بأنه من الأفضل كثيرًا الاعتراف بأن الأمور تسوء في روسيا بدلًا من إنكار ذلك. وفجأة تلقيت خطابات من ثلاثتهم، كل على حدة بالطبع، ولم يعرف أحد منهم أن الآخريّن أرسلا لي شيئًا. كم كانوا صارمين. وانتشرت الإشاعات التي تقول إن هناك أعمالًا قذرة في موسكو، أو كان هناك في الماضي أو أن ستالين الأب أخطأ، على ألسنة أعداء الطبقة العاملة.

ضحكت مولي على الطريقة المهذبة التي عرضت بها آنا الأمر، فكثيرون تجرءوا على إثارة هذه النقطة من قبل.

– لا، ليس ذلك هو المقصود، ما أعنيه أن كل خطاب من هذه الخطابات يمكن أن يحل أحدها مكان الآخر، إذا أسقطنا من حسابنا الخط.

– ليس هذا بالشيء الهين الذي يمكن أن نسقطه.

– وحتى أسلي نفسي كتبت الخطابات الثلاثة، وهي خطابات طويلة وضعتها جنبًا إلى جنب، وكانت متطابقة في البناء اللغوي وأسلوب التعبير واللهجة، ولم يكن بإمكانك أن تقولي إن كاتب هذا الخطاب شخص وكاتب ذاك الخطاب شخص غيره.

قالت مولي باستياء: «بخصوص هذا الدفتر أو أيًّا كان، هل تحتفظين أنتِ وتومي بسر بخصوصها؟»

– لا، أنت تحاولين أن تكتشفي شيئًا ما، ولكنني لم أنته من هذا الموضوع بعد.

– حسنًا، لن أضغط عليكِ.

– ثم أقيم المؤتمر، وتلقيت على الفور تقريبًا ثلاث خطابات أخرى، وجميعها هستيرية، متهمة للذات، ومليئة بالشعور بالذنب واحتقار الذات.

– هل كتبتِ الخطابات مرة أخرى؟

– نعم، ووضعتها جنبًا إلى جنب، وربما كانت مكتوبة بقلم الشخص نفسه، ألا تفهمين؟

– لا، ما الذي تحاولين إثباته؟

– مما لا شك فيه أن الفكرة التالية راودتني، أي نموذج شائع هذا الذي أمثله؟ وما الكيان المتكامل مجهول الهوية الذي صرت جزءًا منه؟

قالت مولي: «حقًّا؟ إن الأمر ليس كذلك لي، إذا اخترتِ أن تجعلي من نفسك شخصًا بلا هوية فافعلي ما تشائين، لكن لا تلحقي بي هذا التوصيف.»

شعرت آنا بالإحباط لأن هذا الاكتشاف وهذه الأفكار التي نتجت عنه تطلعت غالبًا للتحدث عنها مع مولي، وقالت سريعًا: «أثار هذا الأمر اهتمامي، مرت فترة من الوقت يمكن أن تُوصف بأنها فترة ارتباك، وبعض الناس تركوا الحزب. أو بالأحرى ترك الجميع الحزب ... أنا أعني هؤلاء الذين لم يعد هناك دواعٍ نفسية لوجودهم. ثم على حين غرة — وفي الأسبوع نفسه — وهذا هو الشيء الفائق للعادة إلى حد بعيد يا مولي ...» رغمًا عنها تحاول آنا أن تسترضي مولي مرة أخرى: «في الأسبوع نفسه تلقيت ثلاثة خطابات أخرى خالية من الشك وصارمة، وكلها تصميم. وكان هذا الأسبوع هو الذي تلا أحداث المجر، وبعبارة أخرى كان الجميع يعملون على قدم وساق وأصبح المذبذبون تحت السيطرة. وكانت هذه الخطابات الثلاثة متشابهة أيضًا؛ إنني لا أتحدث عن الكلمات داخلها بالطبع ...» استطردت آنا في ضجر ونظرت مولي عن عمد إليها نظرة متشككة: «أعني الأسلوب والعبارات وطريقة ارتباط الكلمات بعضها ببعض. وهذه الخطابات الثلاثة التي تلقيتها في المرة الثانية والتي تتسم بالهستيرية المحتقرة للذات، كانت وكأنها لم تكتب قط، وفي الواقع إني واثقة أن توم ولين وبوب قبعوا ذلك الجزء من ذاكرتهم الذي يحمل هذه الخطابات داخله.»

– ولكنك تحتفظين بها؟

– نعم، ولن أستخدمها في المحكمة إن كان هذا هو ما تقصدينه.

وقفت مولي تجفف الأكواب في بطء بقطعة قماش مخططة باللونين البنفسجي والقرنفلي، وترفع كل كوب لأعلى في الضوء قبل أن تضعه في مكانه. قالت: «حسنًا، سئمت هذا الأمر ولا أظن أنني أريد أن أهتم به مرة أخرى.»

– لكن يا مولي لا نستطيع فعل ذلك، بالطبع لا نستطيع؟ كنا شيوعيتين أو شبه شيوعيتين أو أيًّا كان الاسم سنوات طويلة، ولا يمكننا فجأة أن نقول إننا سئمنا الأمر.

– الشيء العجيب هو أنني سئمت، وأعرف أن هذا غريب، فمنذ عامين أو ثلاثة أعوام كنت أشعر بالذنب إذا لم أقض كل وقت فراغي في تنظيم أي شيء. والآن لا أشعر بالذنب على الإطلاق إن أديت مهام وظيفتي فقط واسترخيت للحصول على قسط من الراحة. إنني لم أعد أهتم يا آنا، لم أعد أهتم على الإطلاق.

– إن الأمر لا يتعلق بالشعور بالذنب، بل بالتفكير في المغزى منه.

لم ترد مولي، ولذا استطردت آنا سريعًا: «أتودين سماع أخبار عن الجالية؟»

الجالية هو الاسم الذي أُعطي لمجموعة الأمريكيين الذين يعيشون في لندن لأسباب سياسية. – يا إلهي! سئمت منهم أيضًا، لا أريد معرفة أي شيء عنهم. لا، ولكنني أود أن أعرف ماذا حدث لنيلسون، إنني معجبة به.

– إنه يكتب ملحمة أمريكية، وترك زوجته لأنها عصابية، وأصبح على علاقة بإحدى الفتيات، وكانت رائعة جدًّا لكنه توصل إلى أنها عصابية أيضًا وعاد إلى زوجته، ووجدها عصابية فتركها، ومن ثم أقام علاقة مع فتاة أخرى لم تصبح عصابية بعد.

– وماذا عن الأخريات؟

– بطريقة أو بأخرى حدث معهنّ الشيء نفسه.

– حسنًا لنترك الحديث عن هذا الموضوع. قابلت الجالية الأمريكية في روما، ويا لهم من أشخاص في منتهى التعاسة.

– هذا صحيح، وقابلتِ من أيضًا؟

– صديقك السيد ماثلونج، الرجل الأفريقي.

– نعم، إنه في السجن حاليًّا ولذا أظن أنه بحلول هذا الوقت في العام القادم سوف يكون رئيس وزراء.

ضحكت مولي.

– وصديقك دي سيلفا أيضًا له قصة.

قالت مولي وهي تضحك مرة أخرى ولكن مقاومة لنبرة صوت آنا الانتقادية: «كان صديقي.» – إذن إليك الحقائق التالية: عاد إلى سيلان مع زوجته، إن كنت تتذكرين أنها لم ترد الذهاب. وأرسل لي خطابات لأنه أرسل لكِ ولم يصله أي رد، أرسل يقول إن سيلان رائعة وتعج بالأشعار، وإن زوجته في انتظار طفل آخر.

– لكنها لم ترد إنجاب طفل آخر.

فجأة ضحكت آنا ومولي، فقد دخلتا فجأة في حالة من التناغم.

– ثم أرسل لي خطابًا يقول فيه إنه افتقد لندن وكل الحرية الثقافية فيها.

– إذن أظن أن بإمكاننا توقع مجيئه في أي لحظة.

– عاد بالفعل منذ أشهر قليلة، وترك زوجته تمامًا، مع أنه يقول إنها أفضل منه بكثير، ويذرف الدمع عليها، لكن ليس كثيرًا فهي أولًا وأخيرًا متورطة مع طفلين في سيلان وليس معها نقود، لذا فهو مطمئن.

– هل رأيته؟

– نعم.

لكنها وجدت نفسها عاجزة عن إخبار مولي بما حدث بينهما، فما فائدة ذلك؟ ستكون النتيجة أن مجرى الحديث سينعطف بهما إلى تلك النبرة المريرة الجافة التي يسهل أن تنحدرا إليها وستقضيان فترة بعد الظهيرة في مثل هذه الحوارات، أقسمت آنا أنها لن تدع ذلك يحدث. – وماذا عنكِ يا آنا؟

لأول مرة توجه مولي لصديقتها سؤالًا على نحو استطاعت آنا أن ترد عليه وقالت على الفور: «جاء مايكل لزيارتي منذ ما يقرب من شهر.» عاشت آنا مع مايكل خمس سنوات وانتهت علاقتها به منذ ثلاثة أعوام مضت رغمًا عنها.

– كيف كانت الزيارة؟

– إلى حد ما كأن شيئًا لم يكن.

– بالطبع ما دام أحدكما يعرف الآخر معرفة وثيقة.

– لكنه كان يتصرف بأسلوب ... كيف يمكنني أن أصف لكِ؟ كان يتصرف وكأنني صديقة قديمة عزيزة عليه. أوصلني إلى مكان أردت الذهاب إليه وكان يتحدث عن زميل له، قال: «أتتذكرين ديك؟» أمرٌ غريب، ألا تظنين أنه لم يستطع تذكر هل أتذكر ديك أم لا، وقد رأيناه كثيرًا من قبل. قال إن ديك حصل على وظيفة في غانا وإنه اصطحب زوجته معه وأرادت عشيقته أن تذهب معه أيضًا، وقال معلقًا إن العشيقات من الصعب إرضاؤهن، ثم ضحك ضحكة طبيعية وفي غير تكلف، كان يود أن يتحدث مثل رجل منتعش وواثق من نفسه، وهذا ما آلمني، ثم بدا محرَجًا لأنه تذكر أنني كنت عشيقته واحمر وجهه خجلًا وشعورًا بالذنب.

لم تعقب مولي، ونظرت إلى آنا من قرب.

– هذا كل ما في الأمر.

قالت مولي بابتهاج، متعمدة قول الشيء الذي سيجعل آنا تضحك: «كلهم خنازير.»

قالت آنا في ألم بلهجة متوسلة: «مولي!»

– ماذا؟ ليس من المفيد التحدث كثيرًا عن هذا الموضوع، أليس كذلك؟

– جال بخاطري أنه من المحتمل أننا ارتكبنا خطأ.

– عذرًا، خطأ واحدًا؟!

لكنّ آنا لم تضحك وقالت: «لا، إنني جادة، نحن مقتنعتان تمامًا أننا على درجة عالية من الصلابة. لا، استمعي إلي، إنني جادة. أعني أننا عندما انتهى زواجنا قلنا إن زواجنا كان فاشلًا، وهذا أمر شديد السوء، وعندما يهجرنا رجل، وهو شيء سيئ جدًّا، نقول إنه ليس مهمًّا، وعندما نربي أطفالنا بلا رجال نقول إنه ليس شيئًا صعبًا على الإطلاق وإن باستطاعتنا التعايش معه، ونقضي سنوات في الحزب الشيوعي ثم نقول حسنًا اقترفنا خطأ ويا له من أمر سيئ.»

قالت مولي في حذر شديد وهي مبتعدة كثيرًا عن آنا: «ما الذي تحاولين قوله؟»

– ألا تظنين أنه من المحتمل أن الأشياء التي تحدث لنا تكون سيئة للغاية حتى إننا لا نستطيع التغلب عليها؟ لأنني عندما أواجه الأمر، لا أظن أنني استطعت أن أتخطى علاقتي بمايكل، وأظن أن الظروف هي ما جعلتني أفعل ذلك. أوه، أعرف أن ما علي قوله هو: لقد هجرني، وخمس سنوات ليست شيئًا كثيرًا وعليّ أن أواصل حياتي.

– ولكن لا يمكن أن تفعلي شيئًا آخر سوى مواصلة حياتك.

– لماذا لا نعترف مطلقًا بالفشل؟ وربما يكون من الأفضل لنا أن نعترف به، والأمر ليس متعلقًا بالحب والرجال فقط، لماذا لا نستطيع أن نقول شيئًا مثل هذا — إننا بشر — ولكن في خيالنا فقط، وهذا هو بيت القصيد — من الحلم العظيم — وعلينا الآن أن نعترف أن الحلم العظيم تلاشى والحقيقة اختلفت، وأنه لن تكون لنا أي فائدة على الإطلاق. لن يمثل الأمر يا مولي خسارة كبيرة؛ أن عددًا قليلًا من الأشخاص الذين ينتمون إلى اتجاه معين اعترفوا بأن أمرهم انتهى. إنه لغرور منا أننا غير قادرين على أن نقول ذلك.

– يا إلهي! كل هذا يا آنا بسبب مايكل، ومن المحتمل أنه سيعود مرة أخرى في أحد الأيام وسوف تنجحين في إكمال طريقك، وإن لم تستمر علاقته بكِ، ما الذي تشكين منه؟ لديكِ موهبة الكتابة.

قالت آنا بوداعة: «يا إلهي! يا إلهي!»

ثم بعد برهة استعادت نبرة الصوت المطمئنة وقالت: «نعم، إن الأمر شديد الغرابة ... حسنًا، لا بد أن أسرع إلى المنزل.»

– «ظننت أنكِ قلتِ إن جانيت مع صديقة لها؟»

– «نعم، لكن لدي أشياء عليّ فعلها.»

قبلت إحداهما الأخرى في حماس، وحقيقة أنهما لم تتقابلا في نقطة مشتركة ظهرت في ضغطة يد خفيفة وحنونة تنم عن خفة الظل. خرجت آنا إلى الشارع لتعود إلى منزلها مشيًا على الأقدام، إذ تعيش على بُعد بضع دقائق في «إيرلز كورت». وقبل أن تلف إلى الشارع الذي تسكن فيه أوقفت على نحو تلقائي رؤيتها لما حولها، فهي لم تكن تؤمن بأنها تسكن في هذا الشارع أو حتى في المبنى السكني الكائن به، بل كانت تسكن بشقتها. ولم توجه نظرها إلى ما حولها مرة أخرى إلا بعدما أغلقت الباب الأمامي لمسكنها خلفها.

كانت الغرف مقسمة إلى دورين أعلى المنزل، خمس غرف كبيرة، اثنتان في الدور السفلي وثلاث في العلوي. وأقنع مايكل آنا منذ أربع سنوات بالانتقال إلى شقتها، إذ قال لها إنه من السيئ أن تعيش في منزل مولي تحت جناح الأخت الكبرى دائمًا. وعندما شكت من عدم استطاعتها تحمل نفقات العيش في شقتها أخبرها أن تؤجر غرفة، فانتقلت متخيلة أنه سوف يشاركها حياتها، إلا أنه تركها بعد ذلك بقليل، ولبعض الوقت استمرت في العيش على الغرار الذي حدده لها. وكان هناك طالبان في غرفة كبيرة، وسكنت ابنتها في غرفة أخرى ورُتبت غرفة نومها وحجرة المعيشة لشخصين، هي ومايكل. غادر أحد الطالبين الغرفة الكبيرة لكنها لم تعبأ بإحلال محله. اشمأزت من غرفة نومها التي خُططت ليشاركها مايكل فيها، وانتقلت إلى غرفة المعيشة حيث تنام وتكتب دفاترها. وبالأعلى لا يزال الطالب قاطنًا وهو شاب من ويلز. تفكر أحيانًا في أن الناس ربما يقولون إنها تعيش مع شاب في شقتها، لكنه شاذ ولا يوجد أي توتر في الترتيبات، ولم تكن آنا تراه تقريبًا؛ إنها تهتم بحياتها الخاصة وجانيت في المدرسة التي تبعد مبنيين عن المنزل، وعندما تكون جانيت في المنزل تكرس نفسها لخدمتها. تأتي عجوز مرة أسبوعيًّا من أجل تنظيف المنزل، وأدرت عليها روايتها الوحيدة «حدود الحرب» الأموال على نحو غير منتظم، فقد أصبحت في فترة معينة من الكتب الأكثر مبيعًا، ولا تزال تدر عليها حتى الآن الأموال التي تكفيها للاستعانة على أمور العيش. الشقة جذابة، مطلية بالدهان الأبيض، وأرضياتها ساطعة، وشكّل الدرابزين وأعمدة السلم أشكالًا بيضاء في خلفيتها ورق أحمر.

ذاك هو الإطار المحيط بحياة آنا؛ غرفتها الكبيرة هي المكان الوحيد الذي تكون فيه على طبيعتها، اتخذت الغرفة شكل المستطيل وبُني أحد جدرانها متراجعًا للخلف بحيث يمكن وضع سرير ضيق فيه. ومن حول السرير رُصّت الكتب والأوراق والتليفون، وفي الجدار الخارجي ثلاث نوافذ طويلة، وفي أحد جوانب الغرفة — بالقرب من المدفأة — مكتب عليه آلة كاتبة تكتب عليها الخطابات، ومراجعات الكتب والمقالات التي تكتبها أحيانًا ولكن بصفة غير معتادة، وفي الجانب الآخر من الغرفة طاولة طويلة ذات قوائم خشبية مطلية بالطلاء الأسود، وبها درج يشمل الأربع دفاتر، وأما سطح هذه الطاولة فلا يكون عليه شيء دائمًا، والجدران وسقف الغرفة بيضاء لكنها في حالة رثة بسبب هواء لندن المعتم، والأرضية سوداء، وللسرير غطاء أسود، والستائر الطويلة ذات لون أحمر باهت.

تنقلت آنا تنقلًا بطيئًا بين النوافذ الثلاث، تتفقد أشعة الشمس الرفيعة الباهتة التي عجزت عن الوصول إلى الأرصفة التي كانت مساحات تفصل بين البنايات العالية التي بنيت في العصر الفيكتوري. ثم أسدلت الستائر على النوافذ وهي تستمع في سعادة إلى صوت الانزلاق المعتاد الصادر عن قضيب انزلاق الستائر في تجاويفها العميقة، والحفيف العذب لالتقاء ثنيات الحرير الثقيل معًا. أضاءت النور فوق الطاولة ذات القوائم الخشبية حتى تألق الطلاء الأسود اللامع عاكسًا وميضًا أحمر من الستارة القريبة. وأخرجت الأربع دفاتر من الدرج، واحدًا تلو الآخر، ووضعتهم متجاورين.

استخدمت كرسيًّا للعزف على البيانو من طراز قديم لتجلس عليه، ورفعته لأعلى ليكون مساويًا للطاولة في الارتفاع. جلست تنظر إلى الدفاتر الأربع كأنها جنرال يقف على قمة جبل، يراقب انتشار جيوشه في الوادي بالأسفل.